47

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول www.hiramagazine.com السنة العاشرة / (مارس - أبريل) ٢٠١٥

الشمعة والعناية

في وجه الظلام ولو شمعةً أشعلْ،

علّها تشقّ السواد البهيم،

وتحظى بِلَحْظ عيون "العناية"،

فيشرق فجر الصباح المنير

ويغشى البياضُ جميع الجوانب..

أتبغي مثالاً على ذي الحقيقة؟

فحسبك أمجاد ماض تليد..

* * *

٢ الأجيال السعيدة
فتح الله كولن

٥ التطرف والغلو باسم الدين
أ.د. محمد عمارة

٩ القيم الأخلاقية.. حرمتها ومكانتها
نور الدين صواش

أحزان وآمال

في قلوبنا اليوم حزن ووجع، وفي أرواحنا ألم وفزع، وفي عيوننا معين دمع إذا جفّ عاد فامتلأ من جديد.. فتعالي يا رحمات الله وإلى الأرض تنزّلي، كفكفي الدموع وامسحي الأحزان، واستنبتي الآمال، وصوني الإنسان، وأنقذيه من التمزق والتشتت، واحفظيه من السقوط في مهاوي الضياع والضلال.

ففتح الله كولن في افتتاحية هذا العدد ينادينا ويمسح عن قلولنا تراكمات القنوط، ويبشرنا بالأمل، ويعدنا بالسعد، ويرسم لنا ما سترفل به أجيالنا القادمة من السعادة والحبور، وباليوم الموعود، وباخضرار الأيام، وازدهار الإيمان، وعودة القيم، وقيام الحق، ونهوض المسلم إلى الأعالي، وارتفاعه إلى القمم، وعودته إلى التاريخ صانعًا، وشاهدًا على الأمم، وحجة عليها ومصححًا لمساراتها.

وعن "الغلو والتطرف باسم الدين"، يكتب محمد عمارة، ويناقش في مقاله جذور هذه الظاهرة التي تكاد تتحول إلى وباء قلما يسلم منه أحد من شعوب الأرض، فيستعرض في مقاله الظاهرة، ويتناول جذورها التاريخية والمعاصرة، ويبين مخاطرها على الوسطية الدينية الأساس والمنبع في كل تفكير ديني اعتدالي وسطي لا إفراط فيه ولا تفريط.

وعن نعمة المياه بالمعايير الشرعية، يكتب "إبراهيم البيومي غانم" قائلاً: ولعل أوضح الدلائل على القيمة الكبيرة للماء في الإسلام أن الله تعالى ذكر في كتابه الكريم أن الماء من نعيم الجنة وأن الحرمان منه نوع من العذاب، فالمياه تسهم بدرجات متباينة في تحقيق المقاصد العامة للشريعة.

ويستنطق "عرفان يلماز" كما هي عادته "الأخطبوط" هذا الكائن البحري، ويجعله يتحدث لنا عن نفسه وعمّا خصه الله ﷻ من عجائب الخلقة وغرائب التركيب الجسماني. كما يكتب عبد الحميد الداودي "التوازن في بناء الإنسان في فكر الأستاذ فتح الله كولن" فيقول: تكاد تشكل كلمة التوازن مساحة واسعة ملحوظة من أحاديث "كولن" عن الإنسان، وهي المفتاح إلى شخصية ذات تكوين متوازن، وهي سمة بارزة لمشروع الخدمة الذي يعرض من خلال مؤسساتها المتنوعة.

وفي "التربية الاجتماعية والتطرف" يجول قلم "طارق الحبيب" فيقول: تفعيل ثقافة الخوف مما يؤدي إلى نشوء ثقافة الصمت فلا يتم التعبير عن الرأي، ولذا يخسر المربي من حيث يظن أنه قد نجح. وفي مقال "رُشْد الجيل الذهبي" لـ"فؤاد البنا" يقول: كانت أقدام الصحابة في "الثرى" منغرسة، ورؤوسهم في "الثريا" مرتفعة، فجمعوا بذلك بين معاقرة الواقعية، ومعانقة المثالية. ويكتب عبد الرزاق قسوم، عن "الشيخ العلاّمة أحمد سحنون"؛ العالم الجزائري وواحد من بناة نهضتها الحديثة، ذاكرًا مناقبه ومعددًا بلاءه في سبيل الجزائر واستقلالها ورفعة دينها وشأنها.

ونحن إذ ننتهي من هذا الاستعراض السريع لبعض مقالات حراء في هذا العدد، نأمل أن يجد فيها القراء ما يفيد ويمتع، والله من وراء القصد.

المحتويات

الأجيال السعيدة / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
التطرف والغلو باسم الدين وآثاره السلبية على الإسلام / أ.د. محمد عمارة (قضايا فكرية)	٥
النوم الصحّي / د. حذيفة أحمد الخراط (علوم)	٩
عالمٌ بعيد المنال / حراء (ألوان وظلال)	١٢
نعمة المياه بمعايير المقاصد الشرعية / أ.د. إبراهيم البيومي غانم (قضايا فكرية)	١٣
حديث الأخطبوط الذكي / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	١٨
الإنسان والإيمان / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٢٢
لا إله إلا الله حقيقة المعرفة وأصل الوجود / د. محمد باباعمي (أدب)	٢٤
لسان النور / حراء (ألوان وظلال)	٢٧
التوازن في بناء الإنسان / عبد الحميد الداودي (قضايا فكرية)	٢٨
العلم الحديث أزمة معرفة أم أزمة قيم؟ / محمد هاشم البشير (علوم)	٣٢
حين تعود الصحراء خضراء / د. عبد الإله بن مصباح (علوم)	٣٥
قلم الإيمان / حراء (ألوان وظلال)	٣٩
تجديد الفكر أم فكر التجديد؟ / د. سعاد دوفاني (قضايا فكرية)	٤٠
إلى الإيمان من جديد / د. سلمان العودة (قضايا فكرية)	٤٢
صعودًا إلى العشق / أ.د. حسن الأمراني (شعر)	٤٤
التربية الاجتماعية والتطرف / د. طارق الحبيب (تربية)	٤٥
رُشْد الجيل الذهبي / أ.د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٤٨
المجتمع الإسلامي في بُعده الإنساني / د. عبد السلام الراغب (قضايا فكرية)	٥٢
الشيخ العلاّمة أحمد سحنون / أ.د. عبد الرزاق قسوم (شخصيات)	٥٦
القيم الأخلاقية.. حرمتها ومكانتها / نور الدين صواش (أنشطة ثقافية)	٥٩

الأجيال السعيدة

"أنا مغمض العينين، ألحظ أجيال الغد وهي تتفتح عن منابت الأمل".

نحن نحس بأن كل شيء في عالم الغد الخيّر الجميل، سيكون بروعة الوجوه المشرقة لأهل الجنة وجمالها، وسيكون تعبيره كنظراتهم عميقًا، وعطره فواحًا كالذي يتضوع من جلودهم وأجسادهم، وستلين القلوب المتحجرة، بل ستذوب من عبق تلك الروائح الزكية التي ستفوح نفحاتها مِسْكِيَّة من كل جانب.

أجل، سيتفتح الوجود في راحة إنسان المستقبل المستنير روحًا، المتقد ذهنًا كبرعم وردة تفتح. وسيمضي الإنسان السعيد نحو المستقبل المنير كاشفًا عن الأكوان كالفاتحين العظام من نصر إلى نصر، حتى يصل إلى معرفة السر بأن الأشياء كلها مسخرة لبني الإنسان. ويسير تحت أقواس النصر الواحد منها تلو الآخر، لينصب راية الفكر والوجدان على برج مرضاة الله تعالى، ويرى قدرته في عجزه، وغناه في فقره، فيحلّق بأجنحة الشكر والشوق، ويستمر في البحث عن عوالم أخرى يفتحها. وحتى تحين اللحظة التي يفتح فيها عينه على العالم الآخر، يعيش في دنياه الحلوة هذه حلاوة الأحلام، محاولاً إضافة أبعاد جديدة لها.

إن قُدِّرَ لنا أن نصل إلى تلك الأيام نحن الذين نقاسي عقدة في لساننا وضيقًا في صدورنا وشللاً في مشاعرنا... نحن الذين نعاني الحرمان فلا نجد فرصة لتوسيع عالم وجداننا وأفكارنا... إن وصلنا إلى تلك

الأيام فستهيج بنا الأشواق وستسَّاقط من أفواهنا الحِكَمُ. وعندما نرى الآمال التي أخفيناها في صدورنا تلوح أمام أعيننا ومشاعرنا الخفية التي تتردد بين الحسرة والأمل تنكشف أمامنا، وأفكارنا السجينة الحزينة على قلة حظها تبرز إلى الميدان... عندها ستتذوق سحر حلاوة عوالم كانت تعيش دومًا في خيالنا.

أجل، إن مشاعرنا الهامدة في أعماقنا ستقوى وتتوتر بشوق، وتذوق لذة هذه الحياة كفراشة تتنقل في الصباح الباكر بين أفنان الورود وأغصان الزهور، باحثة عن أبعاد جديدة من سعادة الحياة التي هي اللذة بذاتها. وفي هذا الجيل الذي تتبرعم في جوارحه أنواع من اللذائذ، سيجد أصحاب الأرواح المنفتحة على ذاتها وعلى عوالم حسها وشعورها، فرصة للبحث عن عوالم أخرى من الجمال اللدنّي، وعوالم أخرى من الخيال المذهل الذي يخطف الأبصار، وسيشاهدون في سهول قلوبهم وبراريها المشرقة بالإيمان، عناقيد نجوم متراصة جانب بعضها، وسفوحًا كسفوح تلال الجنة موزعة هنا وهناك. وفي ظلال هذه الأفكار الملونة الجميلة التي تتوالى، يمزقون الرتابة التي تسعى لإطفاء جمال عالمهم إربًا إربًا فيعيشون في شوق وطرب.

إن المرأ الذي يبلغ هذه المرتبة، يظل مستغرقًا في تأمل وجه الحقيقة التي تشرئب له عبر المنافذ المتفتحة على قلبه ضاربًا عرض الحائط بالصورة الضيقة لعالم الوجود، ومتخلصًا من أسر ماديته باحثًا عن مأوى جديد له خارج كل أبعاد الزمان والمكان. وفي كل قفزة، تحوطه هالات نورانية مضاعفة، وفي كل عملية من عمليات التنوير هذه يزداد إحساسًا بالمنبع الأساسي لوجوده، وينسى تمامًا ما كان يُطلق عليه من قبلُ "أنا"، فيغدو كل صوت يطرق سمعه صوتَ العشق، وكل لون يسيل إلى عينيه لون العشق، ذلكم الذي غُرس كبذرة في روحه منذ الأزل وأحاط بكل كيانه كحمى نافضة، عند ذلك يحترق بنار الوصال ولوعته. ولا يعود لبكاء الألوان ولا لانزياح الأنوار والأطياف، ولا لعبوس الموت وحزنه أيّ أهمية أو معنى. ويرن كل صوت في أذنيه كنغمة أمل باسم، وينبض كل دبيب في أعماقه ولبه نبض الخلود،

السير في طريق دون هدف، عبث من جهة وخطر من جهة أخرى؛ إذ يستحيل حينها الوصول إلى أي نتيجة، ويَنْشَلُّ الأمل في النهاية ويضمحل ويتلاشى، بل قد يفقد العزم والعقيدة أيضًا.

حراء

وتُعرض أمامه جميع الأسرار، ويجد نفسه بين أذرع العشق الذي يحرق كل ما عداه في عقله وذهنه ويذروه رمادًا، فيصل عندها إلى إدراك غاية وجوده.

أجل، إنني آمل أن تتذوق الأجيال القادمة كل يوم وكل ليلة وكل ساعة بل وكل ثانية آلاف اللذائذ لمثل هذه الحياة، وأن تضم في صدرها الأمواج المتلاطمة والمتتابعة لبحار العشق والوصال الكبيرة؛ حيث تنقلب كل موجة صغيرة إلى بحر خضم، ويصل يومًا ما هؤلاء السعداء الذين يرتشفون كل آن قطرات العشق والوصال، إلى أعظم عشق وأروع وصال، ويتخلصون خلاصًا تامًّا من ضجيج "الكثرة وخداع الظلال".

أيها الشاب

أيها الشاب! قف لحظة واستمع إلى أنفاس قلبك وروحك.. شد نفسك وتهيأ للمحاسبة.. انهض واستقم بنور الإيمان في أعماقك، وسِرْ في طريق النور الممتد من وجدانك إلى الحق تعالى.. فهذا الطريق الذهبي يعبر الزمان والمكان من داخلٍ ومن خارج. لن تستطيع أن ترى المعنى الذي يحتضن روحك، ولا الهدف المقدس الذي يتلألأ نورًا، إلا في هذا الطريق.. ستراه هنا ثم ستعشق الجمال الساحر لهذه الحقيقة الجذّابة الأزلية وتسرع وراءها لاهثًا.

ستبدأ أولى خَطْوِك في هذا الطريق باكتشاف نفسك أولاً، وستتداعى إلى ذهنك في كل همة تبديها أو جهد تقوم به بعض الحقائق التي طننتَ أنك نسيتها، وكأنها تحدث لأول مرة. وستمتد أعماقُك إلى أبعاد وأبعاد حتى تنتهي إلى رحاب من السكينة مغمورة في ظلال من الألوان والأنوار.

سترى في ضوء شعلة الإيمان المتقدة داخلك أن كل جنبات الزمان والمكان قد استضاءت بأمواج الأنوار

hiramagazine.com

الآتية من وراء الآفاق موجة إثر موجة. وستعلو بين أذرع الإيمان النورانية القوية حتى تتراءى لك النجوم النابضة[1] والسوبرنوفا[2] والثقوب السوداء[3] وكأنها ورود تتفتح وتنغلق في حضن المكان، تراها فتبتهج وتفرح وتسعد.

أحيانًا تتفرج عبر نافذة وجدانك على روحك، فتراها كأنها ضوء خالد يتجاوز جُدُر المادة ويمرق مخترقًا حجب الزمان والمكان، ويبلغ المشهد ذروته انفعاليًّا عندما ترى أن كل شيء في الكون ينعكس من منبع أزلي. وأخيرًا ستحدس أن كل ما يغمر الأشياء اللامعة من شعاعات وينعكس منها، ليست إلا صدى أنوار عالم الغيب، وفي خضم تلك المعاني المتلاطمة التي تغمر كيانك تغيب عن نفسك أو تكاد. إن كل وارد، يستدعي نوعًا من الأعباء، وكل فضل، يستتبع نوعًا من المشاق، وكل نعمة، يقابلها كلفة، وكل نجاح مادي أو معنوي، مرتبط بسلسلة من الحرمان. ومن ثم فلا نجاح دون عنت أو معاناة، كما لا واردات ولا نِعَم دون مشاق أو أعباء.

وكل من يريد سلوك مثل هذا الطريق الصعب والممتع في الوقت نفسه، عليه أن يعين هدفه أولاً، ويضع ما يريد عمله ضمن نظام معين، ثم يبدأ السير عازمًا مصرًّا على عدم النكوص، وهذا شرط كيلا يضيع في الطريق أو يتوه ولا يغير، وإذا ما اعترضته الصعاب أو العوائق فعليه ألا يغير اتجاهه أو ييأس.

السير في طريق دون هدف، عبث من جهة وخطر من جهة أخرى؛ إذ يستحيل حينها الوصول إلى أي نتيجة، ويَنْشَلُّ الأمل في النهاية ويضمحل ويتلاشى، بل قد يفقد العزم والعقيدة أيضًا.

عندما نقرأ كتابًا نبدأ بالسهل منه كي نفهمه ثم نستمر على مهل، كذلك علينا عندما نضطر في طريقنا لاجتياز التلال والسفوح أن نقسمها إلى أجزاء، لكي لا ننكص على أعقابنا ويصيبنا اليأس عندما تبدو أمامنا الطرق وكأنها من المستحيل اجتيازها.

إن من المستحيل إحياء بنيتنا الفردية والاجتماعية المتداعية من جميع جوانبها منذ عدة عصور بقفزة واحدة، ومن المستحيل بها أيضًا إرجاعها إلى سابق حيويتها وجعلها قادرة على المشاركة على قدم المساواة مع الآخرين في الشؤون العالمية. ولكن إحياء هذه البنية جزءًا جزءًا، والعودة بها ككل إلى سابق عهدها من القوة والحيوية، بات أمرًا ممكنًا. وهكذا، فإنْ تناولنا كل شيء تدريجيًّا وعلى مهل ووفق سيره الطبيعي، فسيعزز ذلك إيماننا ويقوّي عزائمنا ويدفعنا إلى الشعور بأننا نصنع شيئًا. وسنكتشف يومًا أننا قطعنا في هذا الطريق، أشواطًا مُرْعبة، وسنعي في حيرة واندهاش أننا بلغنا نهاية الطريق. عندئذ سننحني ضارعين حمدًا وشكرًا أمام الذات مصدر الألطاف الإلهية.

لا يمكن بالخيال الجامح إنجاز أي شيء، أما السعداء الذين يصارعون الصعاب، ويتصدون لحل المشاكل الواحدة تلو الأخرى، يكشفون عن عناية الحق تعالى الساطعة على وجه إرادتهم ويبرهنون عليها.

هؤلاء سيأتي يوم يجدون أنفسهم في القمة، ويرون البذور التي غرسوها قد أنتجت كل حبة منها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة.. سَيَرون هذا فرحين مسرورين تعلو الابتسامة محياهم وهم يتطلعون إلى مستقبلهم المشرق السعيد. ■

(*) الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة. نشر مقال "الأجيال السعيدة" في مجلة سيزنتي التركية، في العدد:١٠٨، سنة ١٩٨٨، ومقال "أيها الشاب" في العدد:٧٥، سنة ١٩٨٥.

الهوامش

(١) النجوم النابضة: هي نجوم غامضة يلتمع ثم يخفت ضوؤها في دورات متعاقبة. (المترجم)

(٢) السوبرنوفا: هي ظاهرة موت النجوم ثم انفجارها وتبعثرها في الفضاء. (المترجم)

(٣) الثقوب السوداء: عندما تموت النجوم فإنها إما تتفجر وتتبعثر في الفضاء (أي ظاهرة السوبرنوفا)، أو تنهار على نفسها وتتقلص وتتكشف مادتها وثقل الفراغات الموجودة في ذراتها (أو تنعدم هذه الفراغات تماما)، مما يؤدي إلى زيادة هائلة في الكثافة وفي قوة الجاذبية إلى درجة أن الضوء الساقط عليها لا يرتد عنها، لذا يستحيل رؤيتها. (المترجم)

hiramagazine.com

أ.د. محمد عمارة*

احذر واحتط ثم خطط ونفّذ في كل الأمور، وإلا التاث عليك الأمر وسقطتَ في المحذور وضاع جهدك وذهب هباءً عملك.. فعندئذ ترسل الزفرات وتطلق الآهات وتندب الحظوظ وتعاتب القدر.. بينما الذنب ذنبك والخطأ منك وإليك يعود.

الموازين

التطرف والغلو باسم الدين
وآثاره السلبية على الإسلام

١ التطرف هو الذهاب إلى طرف الموقف أو الرأي، والبعد عن الوسط والوسطية والتوازن والاعتدال، سواء أكان ذلك التطرف في الفكر -الديني وغير الديني- أو في الفعل والسلوك. وهذا التطرف هو الذي عبر عنه الفكر الإسلامي بمصطلح "الغلو"، أي المغالاة والبعد عن التوسط والاعتدال.

وهذا الغلو الديني -ككل ألوان الغلو ومنها الغلو اللاديني- هو تجاوز الحد الذي هو الوسطية الإسلامية الجامعة لعناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة والمتناقضة، أقطاب غلوَّي الإفراط والتفريط.

ففي "العقلانية" -مثلاً- غلو إفراط، هو الذي يؤلّه العقل، وينكر أن يكون الوحي والنقل علمًا أو مصدرًا من مصادر العلم، ويرفع شعار التنوير الوضعي الغربي العلماني: "لا سلطان على العقل إلا العقل وحده" مؤلّهًا العقل، وناقلاً لقدراته من "النسبي" إلى "المطلق".

ويقابل غلو الإفراط هذا ويناقضه غلو تفريط، يتنكر للنظر العقلي، ويفرط في الاحتكام إلى نعمة العقل التي أنعم الله بها على الإنسان، والتي هي جوهر الإنسان ومعيار تميزه وامتيازه على غيره من المخلوقات.

التطرف هو الذهاب إلى طـرف الموقف أو الرأي، والبعد عن الوسط والوسطية والتوازن والاعتدال، سـواء أكان ذلك التطـرف في الفكر أو في الفعل والسـلوك، وهذا التطرف عبر عنه الفكر الإسلامي بمصطلح "الغلو".

ويكتفي أصحاب هذا الغلو بالوقوف عند ظواهر النقل وحرفية النصوص، دون اعتبار لمقاصد هذه النصوص.

بينما حد الوسطية الإسلامية في هذه العقلانية، هو الموازنة بين العقل والنقل، وجمع عناصر الحق والعدل منهما معًا، وذلك بالتأليف بين النقل الصحيح والعقل الصريح على النحو الذي يكوّن منهاج النظر "بالعقلانية المؤمنة" التي تقرأ النقل بالعقل، وتحكم العقل بالنقل، نافية تناقض النقل والعقل؛ لأن نقيض العقل ليس النقل وإنما هو الجنون.

وعن هذه الوسطية الجامعة، والرافضة لغلوي الإفراط والتفريط في علاقة العقل بالنقل (الشرع)، تحدّث حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١م) فقال مصورًا تصويرًا نموذجيًّا منهاج الوسطية الإسلامية الجامعة، الرافض لغلوي الإفراط والتفريط في العقل، والجامع لعناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة والأطراف المتناقضة: "إن أهل السنة قد اطلعوا على طريق الجمع بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، فمثال العقل البصر السليم من الآفات والآذاء، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء، فأخلَق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغني إذا استغنى بأحدهما عن الآخر؛ في غمار الأغبياء. فالمعرض عن العقل مكتفيًا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور"[1].

وفي الممارسة والسلوك الديني، هناك غلو الإفراط الذي يدير الظهر للدنيا وطيباتها، ويجعل التدين الإسلامي صورة من الرهبانية التي ابتدعها النصارى دون أن تكتب عليهم، والتي تعذب الجسد طلبًا لخلاص الروح.

وهناك -على النقيض من هذا الغلو- غلو التفريط في الالتزام بالشعائر والروحانيات، وإطلاق العنان للغرائز الحيوانية دونما تهذيب.

بينما حد الوسطية الإسلامية الجامعة في الممارسة والسلوك الديني، هو الجمع -في توازن واعتدال- بين الدين والدنيا، والدنيا والآخرة، وعمران الأرض وتزكية النفس، والاستمتاع بالطيبات الدنيوية الحلال على النحو الذي يجعل هذا الاستمتاع الآني سبيلاً للسعادة الأخروية التي هي خير وأبقى.

وإذا كان "الشح" غلو إفراط يجعل صاحبه وكأنما قد حجر على نفسه الاستمتاع بطيبات ما وهبه الله، فإن "الإسراف السفيه" هو غلو تفريط يستوجب الحجر على صاحبه، كي لا يبدد ما وهبه الله فيما لا يرضى عنه الله. بينما حد "الكرم" الذي يمثل الوسطية الجامعة "للعطاء" الذي غلا فيه المسرف، و"التدبير" الذي غلا فيه الشحيح، هو الموقف الوسطي المحمود الذي برئ من غلوي الإفراط والتفريط معًا.

وإذا كانت الوسطية الجامعة -التي هي خصيصة إسلامية- قد جعلت المنهاج الإسلامي شاملاً للدين والدولة، والفرد والأمة، والفرائض الفردية والفرائض الاجتماعية، والتشريع والتنفيذ، والمبادئ المرجعية والنظم والمؤسسات والآليات... فإن مخاصمة "السياسة" وإهمالها، هو لون من غلو التفريط في الاهتمام بأمور الناس، وإقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما أن اختزال الإسلام في السياسة والسيف والقفز على الدولة هو لون من غلو الإفراط، بينما حد الوسطية الجامعة هو الذي يجعل المنهاج الإسلامي شاملاً -في توازن يراعي الأوزان والأولويات- لكل مناحي الحياة ولما بعد هذه الحياة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٢-١٦٣)؛ فالدين لله، وأيضًا الوطن -الذي هو للجميع- هو والجميع لله.

والغلو الديني -إفراطًا كان أو تفريطًا ككل ألوان الغلو- قديم قدم الفكر الإنساني، والسلوك البشري الذي

hiramagazine.com

تحكمه وتوجهه الأفكار والمعتقدات والعادات. ولقد ورد التعبير القرآني المباشر عن الغلو في حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾(النساء:١٧١).

ومنذ صدر الإسلام، لم يخل المجتمع الإسلامي من الغلو والغلاة، سواء أكان ذلك غلو إفراط أم غلو تفريط. فالذين استقلوا أعمالهم الصالحة، فعزموا على صيام النهار أبدًا وقيام الليل دائمًا، واعتزال النساء والزواج والإنجاب كلية، قد أرادوا الإسلام غلو الرهبانية المبتدعة، بينما هو الوسطية الجامعة والمتوازنة والعادلة.

وأهل الغلو في التصوف -الباطني غير الشرعي- قد فرطوا في الدنيا لحساب الآخرة، وفي الماديات لحساب الروحانيات، فاعتزلوا الدنيا والدولة والسياسة، وزهدوا في الطيبات المباحة، ناسين أن هذه هي الطريق القويمة إلى سعادة الآخرة.

بينما كان هناك الذين اختزلوا الإسلام في السيف والدولة والحكومة والسلطان -مثل الخوارج- فتنكبوا -رغم شرف المقاصد- منهاج الإسلام في التغيير، وهو الدعوة والتربية وصناعة الإنسان السوي بإعادة صياغته صياغة إسلامية؛ ليثمر المجتمع الإسلامي السوي دولة الأسوياء التي تحافظ على بقاء هذا المجتمع سويًّا.

ولقد جاء في الحديث الشريف -الذي هو البيان النبوي للبلاغ القرآني- النهي عن كل ألوان الغلو في الدين -كل مناح الدين- فقال: "أيها الناس، إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين" (رواه الإمام أحمد)، وكذلك النهي عن الغلو في التعامل مع القرآن الكريم إفراطًا أو تفريطًا، فقال: "اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه" (رواه الإمام أحمد).

وإذا كان الخوارج قد ارتادوا في التاريخ الإسلامي ميدان "الغلو المنظم" -كفرقة- عندما جعلوا حاكمية الله ﷻ -التي هي قضاؤه التكويني والتشريعي- نافية لحاكمية

حد الوسطية الإسلامية في العقلانية، هو الموازنة بين العقل والنقل، وجمع عناصر الحق والعدل منهما معًا، وذلك بالتأليف بين النقل الصحيح والعقل الصريح، على النحو الذي يكوّن منهاج النظر "بالعقلانية المؤمنة".

حراء

البشر الحاكمين في الدولة والسياسة والاجتماع، فخرجوا بذلك عن حد الوسطية الإسلامية الجامعة بين سيادة الحاكمية الإلهية المتمثلة في شريعته الإلهية، وبين سلطة حاكمية البشر -أمة ودولة- التي هي حاكمية الخلفاء المستخلفين لله، والتي قد تكون حاكمية بشرية "بارة"، وقد تكون حاكمية بشرية "فاجرة"؛ لأنها لا تتمتع بالعصمة التي تتمتع بها شريعة الله والأنبياء المرسلون.

إذا كان الخوارج قد بدأوا أولى حلقات هذا "الغلو المنظم" -كفرقة- في الفكر الإسلامي وفي وضع هذا الفكر المغالي في الممارسة والتطبيق -هبّات وثورات ومعارك استنزفت قواهم وقوى الدولة الإسلامية لأكثر من قرن من الزمان- فإن الوسطية الإسلامية الجامعة لحاكمية الله، ولحاكمية البشر المستخلفين عن الله، قد كانت واعية وحاضرة في مواجهة هذا الغلو منذ اللحظة الأولى لولادته.

فمنذ التحكيم في الصراع بين الراشد الرابع علي بن أبي طالب (٦٠٠-٦٦١م) كرم الله وجهه، وبين معاوية بن أبي سفيان ﷺ (٦٠٣-٦٨٠م) ومن معه من أهل الشام عقب معركة "صفين" (٦٥٧م)، وعندما هتف الخوارج في معسكر علي ﷺ: "لا حكم إلا لله"، مكفرين الذين ارتضوا التحكيم والحاكمية البشرية في هذا النزاع السياسي، كانت الوسطية الإسلامية الجامعة حاضرة على لسان الإمام علي بن أبي طالب ﷺ الذي أجابهم: "إنها كلمة حق يراد بها باطل! نعم، إنه لا حكم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله! وإنه لا بد للناس من أمير، بر أو فاجر"(٢).

ومن "المفارقات" التي تدخل في باب "الموافقات"، أن شعار "الحاكمية" هذا ومصطلحها بمعناه "الخوارجي" الذي جنح أصحابه إلى جعل الحاكمية الإلهية نقيضًا

hiramagazine.com

نافيًا لأية حاكمية بشرية والذي بدأت به مسيرة "الغلو المنظم" في التاريخ الإسلامي، قد توارى -هذا الشعار- عن أدبيات الفكر الإسلامي مع طي التاريخ الإسلامي لصفحة الخوارج كثورة مسلحة مستمرة. وظل هذا المصطلح والشعار متواريًا حتى بعثه من مرقده العلامة المجاهد أبو الأعلى المودودي (١٩٠٣-١٩٧٩م) رغم ما بين المودودي والخوارج من خلاف واختلاف، فكان أن بدأت مسيرة جماعات الغلو الإسلامي المعاصر تحت رايات شعار الحكمية من جديد.

لقد بدأت هذه الجماعات من "بعض" -ونؤكد على كلمة "بعض"- عبارات المودودي التي كتبها في واقع هندي وهندوكي له ملابسات سياسية وحضارية خاصة، كان المسلمون فيها ٢٥٪ من سكان الهند قبل التقسيم، وكانت الحاكمية البشرية في ذلك الواقع إما سلطة الاستعمار الإنجليزي، أو السلطة الهندوكية، وكلتاهما عازمة على سحق الهوية الإسلامية للمسلمين الهنود. ولذلك -ولهذه الملابسات الهندية الخاصة- رفض المودودي في بعض نصوصه الحاكمية البشرية التي رآها نقيضًا للحاكمية الإلهية!

ثم جاء الخطأ المزدوج لجماعات الغلو الإسلامي المعاصر عندما نقلت هذا الشعار من الهند إلى الواقع العربي، فكان خطأً مزدوجًا تمثل في:

• الأول هو تجريد عبارات المودودي عن الحاكمية من ملابساتها السياسية الخاصة التي أفرزتها، وتحويلها إلى "دين ثابت" صالح للتطبيق في أي مكان، فبدأت هذه الجماعات توظيف عبارات المودودي هذه في واقع عربي يمثل المسلمون فيه ٩٦٪ من السكان، فتحول "الفكر السياسي" النسبي والمرتبط بالواقع الذي يثمره ويحدد طبيعته وتطوره، إلى "دين ثابت" صالح لكل زمان ومكان.

• أما الخطأ الثاني الذي وقعت فيه جماعات الغلو الإسلامي المعاصر عندما انطلقت من عبارات المودودي عن "الحاكمية"، فلقد تمثل في انتزاع النصوص الملتبسة والموهمة والمتجزأة من كتابات المودودي حول الحاكمية، وإهمال المنهاج العلمي في القراءة الكاملة للمشروع الفكري والسياسي للمودودي، تلك القراءة التي تضبط مفهوم المودودي لمعنى مصطلح الحاكمية، والتي تنصف الرجل عندما تبرئه من المسؤولية عن فكر وسلوك جماعات الغلو هذه، التي ظلمته عندما زعمت أنها قد بدأت من عنده، كما ظلمه أهل الغلو اللاديني عندما سلّموا بنسبة جماعات الغلو هذه إلى هذا الداعية الإسلامي العظيم.

ولجلاء هذه الحقيقة، وسلوكًا لمنهاج الدراسة النقدية الموضوعية التي تعطي كل ذي حق حقه، ننبه إلى أولى مقولات الغلو الإسلامي المعاصر، مقولة "الحاكمية"وثمراتها الفكرية، وخاصة:

مقولة "جاهلية" حضارتنا الإسلامية ومجتمعاتنا ودولنا الإسلامية المعاصرة، ومقولة "كفر وتكفير" هذه المجتمعات المعاصرة ودولها وحكوماتها، بل والقول "بارتداد الأمة الإسلامية" عن الإسلام منذ قرون، وكذلك التفسيرات المغالية والخاطئة لفكرة "الفرقة الناجية" التي جعلت وتجعل قلة من الغلاة يتصورون أنهم وحدهم هم "الفرقة الناجية"، وأن الأغلبية الساحقة من سواد الأمة وشعوبها -فضلاً عن حكوماتها- هالكون في نار الجحيم.

تلك المقولات التي جعلت هؤلاء الغلاة يفاصلون المجتمعات الإسلامية، ويحاولون الانفصال عنها، بالتكفير والهجرة حينًا، وبالعزلة الشعورية حينًا، وبالاستعلاء على سواد الأمة في كل الأحايين، الأمر الذي جعل من هؤلاء الغلاة "خوارج" على الأمة والمجتمعات الإسلامية فضلاً عن الدول والحكومات، سواء أكان "خروجهم" مسلحًا أم غير مسلح، وذلك على الرغم مما يحسبون ويعتقدون من بعد الشقة وشدة الخلاف بينهم وبين الخوارج القدماء. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي، ص:٢-٣، طبعة القاهرة، مكتبة صبيح، دون تاريخ.

(٢) نهج البلاغة، علي بن أبي طالب، ص:٦٥، طبعة دار الشعب، القاهرة.

hiramagazine.com

د. حذيفة أحمد الخراط*

إذا كنت تريد أن تكون رجل علم بحق، فاستعن بتجارب الآخرين، وتعلم منهم، وسر على هداهم، وابحث ودقق وجرّب ليطمئن بالك ويتيقن عقلك وتزول شكوكك.

الموازين

النوم الصحّي

١ النوم ضرورة من ضرورات تكوين أجسام الكائنات الحية وبنائها، وبه ينعم الإنسان بلذّة الراحة، ويستعيد نشاطه، وتعود له قواه المنهكة، وما بذله من طاقة وجهد في أثناء ساعات النهار. وهو نعمة عظيمة وآية من آيات الإعجاز العظمى في خلق الإنسان، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾(الروم:٢٣).

والنوم وسيلة الدخول في سبات فسيولوجي يرمّم خلاله الجسمُ ما تهدم من خلايا وأنسجة، ويتابع فيه نموه المتوازن، ويريح به أجهزته المختلفة؛ إذ يهدأ في أثنائه نشاط الدماغ والتفاعلات الحسية والحركية، وينخفض ضغط الدم ودرجة حرارة الجسم، ويقلّ معدل ضربات القلب وسرعة التنفس، لتستعيد بعدها تلك الأجهزة من جديد نشاطها عقب الاستيقاظ.

وإذا مُنع الإنسان النوم أصابه الأرق أيامًا عديدة، وظهرت لديه علامات الاضطرابات الذهنية، والهلوسة

يؤدي النوم على الشق الأيسر إلى ضغط الرئة اليمنى والكبد على القلب، فيعيق ذلك حركته ويقلل نشاطه وضخه للدم، كما تضغط الكبد على المعدة فتؤخر إفراغها، ويصاب النائم حينها بعسر الهضم أيضًا.

حراء

(Hallucination) السمعية والبصرية، ويعقب ذلك فَقْد التركيز والهزال والهذيان الفكري، وانهيار تدريجي لأجهزة الجسم يتمثل في اضطراب وظائف الغدد الصماء؛ كارتفاع سكر الدم، وقلة إفراز هرمون النمو، وضعف جهاز المناعة، وظهور أعراض نفسية؛ كالقلق، وتعكر المزاج، وضمور خلايا الدماغ، وضعف العضلات.

وقد عمد الإسلام إلى تنظيم حياة المسلم بين ليله ونهاره، فوضع بصمته المباركة في دقائقها، ووجه إلى ما فيه خير جسم المسلم وصلاحه. وجاءت نصوص السنة الكريمة فنظمت نوم الإنسان، وسنّت له جملة من الآداب التي صانت صحة النائم ووقته من التعرض للأذى، ومِن هذه الآداب:

أ- حثت السنّة على توخي الحذر والسلامة والأخذ بأسباب الحيطة قبل النوم، ومن ذلك إطفاء النار والمصباح في المنزل بغية وقاية النائم من خطر حدوث الحريق، ففي الحديث: "إن هذه النار إنما هي عدوّ لكم، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم" (رواه مسلم).

وحذرت الأحاديث كذلك من النوم في الأماكن الخطرة، فقد "نهى رسولُ الله ﷺ أن ينام الرجلُ على سَطْحٍ ليس بِمَحْجُورٍ عليه" (رواه الترمذي)، وعلة ذلك واضحة؛ فالنوم في مكان آمن وعالي السور، يساعد في حفظ الجسم من خطر السقوط فيما لو قام النائم فزعًا، أو سار وهو مغلوب بالنوم، ولا شك أن في السقوط تعريضًا لأذى الجسم وإصابته بمخاطر كثيرة.

كما "نهى النبيّ ﷺ عن الوَحْدة" (رواه الإمام أحمد)؛ وفي ذلك أيضًا وقاية للنائم من المكروه المتوقّع، كأن يكون مريضًا فيحتاج إلى من يناوله الدواء أو يعينه على قضاء حاجة ما، أو يأخذه إلى المستشفى إن احتاج ذلك مثلاً.

ومن الصور الأخرى للأخذ بأسباب السلامة قبل النوم، إغلاق الأبواب؛ ويفيد ذلك في منع دخول الحيوانات المؤذية التي قد تلحق الضرر بالنائم من حيث لا يدري. وقد جاء ذلك في حديث: "إذا كان جُنحُ الليل فكُفّوا صِبيانَكم فإنّ الشيطان ينتشر حينئذ، فإذا ذَهَب ساعةٌ من الليل فَخَلّوهم، وأغلقوا الأبوابَ، واذكروا اسمَ الله فإنّ الشيطان لا يفتح بابًا مُغْلَقًا" (رواه مسلم).

وتأمر أحاديث أخرى بِنَفْض الفراش قبل الولوج فيه، ومن ذلك حديث: "إذا أوى أحَدُكم إلى فراشه فليأخذ داخلةَ إزاره، فلْيَنْفُض بها فراشَه، ولْيُسَمّ الله، فإنه لا يَعْلَم ما خَلَفَه بَعْدَه على فراشه" (رواه البخاري). وتُظهر لنا عدسة المجهر ما يَستقرّ في فراش النائم مِن كائناتٍ حيّةٍ دقيقة لا تُرى بالعين المجرّدة، كالميكروبات المختلفة، والحشرات الصغيرة وبيوضها وريقاتها. وفي نَفْض الفراش إزاحةٌ لجُزءٍ كبير من تلك الكائنات المسّببة للأمراض، ووقاية للجسم من لَسْع ما قد يستقرّ في الفراش مِن الهوام. وتتّضح فائدةُ هذا الهدْي النبويّ بصورة أوضح في حال تعذّر الرؤية في الظلام، لانقطاع الكهرباء مثلاً، أو في النوم في الصحراء أو العراء، إذ تكثر الهوام والعقارب والحشرات.

ب- وأُمِر المسلمُ بالوضوء قبل أن يخلد إلى النوم، ففي الحديث: "إذا أتيْت مضْجعك فتوضأ وضوءك للصلاة" (رواه مسلم). وفي الوضوء قبل النوم وقاية صحية للنائم، إذ تسهم أفعال الوضوء المختلفة في تنظيف أعضاء الجسم، وتخفيف ما يتراكم في الجلد من بكتريا، وميكروبات أخرى، وفيه أيضًا إزالة ما علق بالجلد من رائحة الطعام الجاذبة للحشرات والهوام نحو جسم النائم.

جـ- وحث الإسلام على النوم باكرًا، وحذر من عادة السهر الضارة التي شاعت في أيامنا هذه، ونتج عنها تبعات صحية كثيرة، يقول عليه الصلاة والسلام: "إياك والسّمَر بعد هدأة الليل" (رواه الحاكم).

ومن المعروف علميًّا أن للسهر تأثيرًا ضارًّا في صحة الجسم، فهو سبب رئيس للإرهاق النفسي والإجهاد الجسدي، ويَظهر تأثيرُه جليًّا في أعضاء الجسم المختلفة، ولا سيما جهاز الغدد الصماء، الذي يصاب بالإنهاك الذي يُعِيقه عن أداء مهامه على الوجه الأمثل.

كما ثبتت علميًّا فوائد الاستيقاظ الباكر -التي يحرم منها من اعتاد السهر- إذ تعلو نسبة غاز الأوزون عند الفجر، وتقل تدريجيًّا حتى طلوع الشمس، ولهذا الغاز تأثيرات صحية مفيدة، منها تنشيط عضلات الجسم وجهازه العصبي. كما أن شمس الصباح الباكر من جهة أخرى غنية بالأشعة فوق البنفسجية، التي تحرض الجلد على صناعة فيتامين (D) الذي يُثبّت معدن الكالسيوم في العظام.

د- حثت الأحاديث على النوم على الشق الأيمن، ومن ذلك حديث: "إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن" (رواه مسلم).

وأوضاع النوم أربعة، فقد ينام النائم على ظهره أو بطنه أو شقه الأيمن أو الأيسر. وسنناقش تلك الأوضاع المختلفة لبيان حرص السنة على اختيار الوضع الأنسب للصحة منها، وهو النوم على الشق الأيمن.

١- يؤدي النومُ على الظهر إلى استرخاء الفك السفلي، ويجبر النائم على فتح فمه للتنفس، وتتعطل بذلك عملية التنفس الطبيعية من الأنف، فتتوقف وسائل الدفاع التي خلقها الله في الأنف لتصفية هواء الشهيق وضبط درجة حرارته. ويؤدي ذلك في المحصلة إلى إصابة النائم بالزكام، وجفاف اللثة، ويعلو صوته بالشخير، ويصبح عرضة لدخول عدد أكبر من الميكروبات والجراثيم عبر فتحة الفم.

ولا يُناسب النوم على الظهر صحة العمود الفقري، إذ يسبب انثناء فقرات الرقبة والظهر. وقد تؤدي المداومة على فعل ذلك إلى حدوث تغييرات في شكل الجمجمة عند الأطفال.

كما يرفع وضع النوم هذا، أحشاء البطن نحو الأعلى، مما يضغط على الحجاب الحاجز (Diaphragm) فيضيق بذلك حجم الصدر مؤدّيًا إلى ضيق التنفس.

٢- يسبب النوم على البطن ضيق النفس، ويعود ذلك إلى ضغط الجسم على الرئتين، ومنع القفص الصدري من التمدد الكامل في أثناء التنفس، وينتج عن ذلك خلل في عمليتي الشهيق والزفير. كما تضغط المعدة في هذا الوضع، مما ينتج عنه سوء الهضم، وما

أثبتت تجارب عدة أن مرور الطعام من المعدة إلى الأمعاء، يتم في مدة تتراوح بين ساعتين وأربع ساعات إذا كان النوم على الجانب الأيمن، بينما يتم ذلك في مدة تصل إلى ثماني ساعات إذا كان النوم على الشق الأيسر.

يعقبه من الشعور بألم المغص. وقد حذرت السنّة من النوم على البطن، ومن ذلك حديث "هذه نومة يكرهها الله" (رواه ابن ماجة).

٣- يؤدي النوم على الشق الأيسر إلى ضغط الرئة اليمنى والكبد على القلب، فيعيق ذلك حركته ويقلل نشاطه وضخه للدم، كما تضغط الكبد على المعدة فتؤخر إفراغها، ويصاب النائم حينها بعسر الهضم أيضًا.

٤- يناسب النوم على الشق الأيمن أعضاء الجسم الداخلية، ويضمن حسن أداء أجهزته، ولا سيما الجهاز الهضمي والتنفسي والقلب. وقد أوضح علما التشريح وفسيولوجيا الأعضاء ما خفي من حكم عظيمة حين اختارت السنّة هذا الوضع من النوم، إذ تستقر كبد الإنسان النائم على شقه الأيمن بشكل مريح، وتجثم المعدة فوقها بيسر وسهولة دون أن تتعرض لضغط الأعضاء المجاورة، وهذا أسهل لإفراغ محتوى المعدة من الطعام وتسريع عملية الهضم.

وقد أثبتت تجارب عدة أن مرور الطعام من المعدة إلى الأمعاء، يتم في مدة تتراوح بين ساعتين وأربع ساعات إذا كان النوم على الجانب الأيمن، بينما يتم ذلك في مدة تصل إلى ثماني ساعات إذا كان النوم على الشق الأيسر.

ويريح النوم على الشق الأيمن أعضاء الجهاز التنفسي أيضًا، إذ تضغط الرئة اليسرى هنا على القلب برفق، فهي أصغر من جارتها اليمنى وأقل وزنًا منها. كما يسهل هذا الوضع وظيفة القصبات الهوائية في طرحها لإفرازاتها المخاطية، مما يقي الرئتين من الإصابة بالالتهابات.

كما يمنع النوم على الشق الأيمن ضغط المعدة والحجاب الحاجز على القلب، مما يعطيه سلاسة في أداء وظائفه، كضخ الدم نحو أعضاء الجسم المختلفة.

hiramagazine.com

٥- ومن الهدي النبوي أيضًا وضع النائم يده اليمنى تحت خدّه، ففي الحديث: "كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده" (رواه البخاري)، ويعْدُل ذلك علميًا وضع وسادة رقيقة تحت الرأس، وهذا يعني رفعه إلى مستوى أعلى من القلب قليلاً، مما ييسر ضخ القلب للدم نحو الرأس بسهولة، وبالتالي وصول قدر أكبر من الدم نحو الدماغ. أما الوسادة المرتفعة فتجعل الرأس في مستوى أعلى من القلب كثيرًا، وفي ذلك إعاقة وصول الدم نحو الرأس وحرمانه من ترويته بالدم.

٦- حثت نصوص أخرى على رد التثاؤب، وعدم استرسال المتثائب في فتح فمه، ومن ذلك حديث: "إنّ الله تعالى يُحب العطاس، ويكره التثاؤب" (رواه البخاري)، وحديث: "إذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع" (رواه البخاري).

وفي رد التثاؤب وكظمه فائدة جمة للصحة، ويؤدي إهمال ذلك -بفتح الفم كاملاً- إلى دخول كمية كبيرة من هواء الشهيق باندفاع قوي نحو الرئتين، إلا أن هذا الهواء لا يخضع لتنقية أو تصفية قبل دخوله، لأنه يعبر من خلال فتحة الفم غير المهيأة لاستقبال الهواء، ويحمل ذلك الهواء غير المنقى أعدادًا كبيرة من الجراثيم والطفيليات، ولا شك أن في الحث على إغلاق فم المتثائب، وقاية لجسمه من أضرار تلكم الكائنات.

ويضر فتح الفم الكامل في أثناء التثاؤب أيضًا، عضلات الفم والحنك ومفاصلهما، إذ يؤذي صحة المفصل الفكي الصدغي (Temporomandibular Joint) ويُمزق أربطته المفصلية، مما يؤدي إلى التهابه وإصابة صاحبه بآلام شديدة فيه.

إذن فما أعظم الهدي النبوي وهو يدعو إلى آداب النوم تلك، وما أعظم ما رأينا من حكم وفوائد صحية أزاح نقابها العلم الحديث ليزداد بذلك إيماننا ويقيننا بأن صاحب ذلك الهدي ما نطق يومًا عن الهوى، وما كان كلامه إلا وحيًا من عند الله يوحى. ■

(*) اختصاصي جراحة التجميل بالمدينة المنورة / المملكة العربية السعودية.

عالَمٌ بعيد المنال

الأرض في الدماء غرقت،
وفي الحروب تسعّرت،
والإنسان.. مصنوع "السّلام" ﷻ،
عَجز أن يقيم في أرضه صروح الأمان،
حتى غدا العود في منقار حمام،
رمزًا لما يروم من سلام...

* * *

أ.د. إبراهيم البيومي غانم*

نعمة المياه
بمعايير المقاصد الشرعية

١ الماء من أعظم النعم التي أسبغها الله ﷻ على خلقه. ومن هذه النعمة خرجت كل أنواع الحياة البشرية والحيوانية والنباتية، ولا بقاء لأي من هذه الحيوات دون الماء. وتحفل آياتُ القرآن الكريم بكثير التوجيهات والمبادئ والقواعد التي تدعو إلى حسن التعامل مع الماء باعتباره نعمة إلهية، وتحض على تقديرها حق قدرها، وتحذر من تعريضها للفساد أو للهدر أو للتلوث. وتحفل الأحاديث النبوية الشريفة، وتحفل مصادر تراثنا الفقهي العريق بتلك التوجيهات أيضًا. وتبشر هذه التوجيهات الذين يحسنون استخدام الماء بالحياة الطيبة في الدنيا، وبالثواب الجزيل والأجر العظيم يوم الحساب، وتتوعد الذين يسيئون استخدامه بالعقاب وسوء المصير؛ إذ إن العدوان على الماء هو عدوان على الحياة ذاتها، وقد يكون فيه إزهاق للأنفس والأرواح، وتضييع لمقصد أو أكثر من مقاصد الشريعة.

في القرآن الكريم ورد الكلام عن الماء ومعانيه وأنواعه وأوعيته ومجاريه واستخداماته المتعددة في خمسمائة آية. فكلمة "ماء" وردت ثلاثًا وستين مرة، وكلمة "نهر" و"أنهار" وردتا اثنتين وخمسين مرة. وكذلك وردت كلمات مثل "العيون" و"الينابيع" و"المطر" و"البرد" و"الغيوم" و"الرياح" عشرات المرات في القرآن الكريم، إلى جانب عديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي اشتملت على توجيهات قيّمة في كيفية التعامل مع المياه والمحافظة عليها وترشيد استخدامها والإفادة منها.

ولعل أوضح الدلائل على القيمة الكبيرة للماء في الإسلام، أن الله تعالى ذكر في كتابه الكريم أن الماء من نعيم الجنة، وأن الحرمان منه نوع من العذاب، قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾(الأعراف:٥٠)، ومن ماء السماء ما هو مبارك، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾(ق:٩).

ولارتباط الماء بحق الحياة وحفظ النفس، جعلت الشريعة ملكية الماء عامة، وقررت حق الحصول عليه مجانًا، وكذلك حقوق الانتفاع به لكل المستفيدين به دون تمييز بينهم. وحرمت الشريعة أيضًا احتكار الماء، ونهت عن إفساده.

حراء

والماءُ هو أصل كل حياة تدب على الأرض، وهو مدعاة للتفكير والتأمل في كيفية الاستفادة مما ينبته من مزروعات وثمار مختلفة المذاق والشكل والرائحة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:١٠-١١).

وفي مدونات الحديث النبوي نجد -مثلاً- أن البخاري -رحمه الله- قد عنون الجزء الثاني من صحيحه باسم "كتاب الشرب والمساقاة"، "بابٌ في الشرب وقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء:٣٠)، وقوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾(الواقعة:٦٨-٧٠)". وعن عثمان ﷺ أن النبي ﷺ قال: "من يشتري بئر رُومةَ، فيكونُ دَلوُه فيها كدِلاء المسلمين" فاشتراها عثمان ﷺ (رواه البخاري)، ثم يورد أحاديث الماء وأفعال الرسول ﷺ وتصرفات الصحابة ﷺ في هذا الموضوع الحيوي.

ولارتباط الماء بحق الحياة وحفظ النفس، جعلت الشريعة ملكية الماء عامة، وقررت حق الحصول عليه مجانًا، وكذلك حقوق الانتفاع به لكل المستفيدين به دون تمييز بينهم. وحرمت الشريعة أيضًا احتكار الماء، ونهت عن إفساده، ومنعت بيعه؛ وذلك عملاً بقول الرسول ﷺ: "المسلمون شركاء في ثلاثة: في الماء والكلإ والنار" (رواه الإمام أحمد). وعملاً بهذا الهدي النبوي، صنَّف الفقهاء "مرفق المياه" ضمن المرافق العامة التي يجب أن تنهض بها الحكومة من حيث حماية المياه وتوفيرها وتنقيتها وتوزيعها توزيعًا عادلاً، على أن يشاركها في القيام بهذه المهمات أبناء المجتمع وبخاصة الموسرين منهم؛ إما بدعم الميزانية المخصصة لهذا المرفق، أو بالمشاركة مباشرة في توفير الماء وفق نظام "الأسبلة" أو "الصهاريج" أو القنوات، أو "الآبار" الموقوفة لوجه الله تعالى لتيسير الحصول عليه للذين يحتاجونه حيثما كانوا.

قواعد فقه المياه بين التراث والواقع

تحفل كتب الفقه الإسلامي بكثير من التفاصيل المتعلقة بتنظيم المياه، وتطهيرها والتطهر بها، وترتيب إجراءات سقي النبات والحيوان والطير، ناهيك عن الإنسان. وتتضمن تلك الكتب -كذلك- أصول المشاركة في منابع المياه، وكيفية حل المنازعات التي قد تنشأ بسبب الخلاف حول أحقية استعمال المياه. وبنظرة كلية على تلك التفاصيل، نجد أن معايير المقاصد العامة للشريعة تشكل رابطًا قويًّا يجمع أجزاءها، ويلمّ شملها باتجاه تحقيق المصالح الجماعية التي يشترك فيها أغلب البشر ويتقاسمون الانتفاع بها.

ومع ما هنالك من ثراء وتنوع في الآراء الفقهية بشأن المياه لدى أئمة مختلف المذاهب ومجتهديها في الأزمنة السابقة؛ إلا أننا لاحظنا تراجع فقه المياه في كتابات الفقهاء المعاصرين، وكذلك في أعمال المجامع الفقهية بصفة عامة، وبلغ هذا التراجع أدنى مستوى له بالاقتصار على مسائل محدودة تتعلق باستعمال المياه في الطهارة (الوضوء-الغسل، النظافة بشكل عام). أما ما سوى ذلك من مشكلات المياه الكبرى ومنها التلوث البيولوجي (الجرثومي والبكتيري)، والإشعاعي (النووي) والكيماوي، وما لهذه الملوثات من تأثيرات سلبية على حياة الإنسان والحيوان والنبات والبيئة وعلى "السلم الأهلي" و"السلام العالمي"، فلا نكاد نجد لأمثال هذه المشكلات أثرًا في كتابات الفقهاء المعاصرين، ولا فتاوى دور الإفتاء، ولا الموسوعات الفقهية، ولا الأعمال الصادرة عن المجامع الفقهية في طول العالم الإسلامي وعرضه. وغابت عن تلك الكتابات المعاصرة كذلك، المشكلات الناجمة عن الأنظمة الحديثة لتوفير وتوزيع المياه والصرف الصحي، واختلال نسب توزيع المياه بين قطاعات الاقتصاد الوطني. وفي رأينا أن هذا الغياب وذاك القصور هو من نتائج "انفصال"

hiramagazine.com

الفقه عن المقاصد، وأن هذا الانفصال يسهم في علمنة الحياة الاجتماعية بإقامة حواجز مصطنعة -بوعي أو دون وعي- بين منظومات القواعد الفقهية وكلياتها وضوابطها، وبين معايير المقاصد العامة للشريعة.

إن أغلب الكتابات الفقهية المعاصرة بشأن قضايا المياه، تتجه في أغلبها -كما أسلفنا- نحو ربطها بمسائل العبادات، ولا تكاد تبرحها إلى المسائل الأخرى ذات الصلة بالمعاملات المدنية والتجارية والإدارية والاقتصادية، ناهيك عن المسائل ذات الصلة بالمشكلات السياسية والنزاعات الدولية حول مصادر المياه وقواعد تنظيم استغلال الأنهار الدولية وبناء السدود ...إلخ.

ونحن نسلم بأن المياه تسهم بدرجات متباينة في تحقيق "المقاصد العامة للشريعة"، ولا يختلف في ذلك اثنان، سواء كان استخدامها لتلبية المتطلبات المعنوية لهذا الحفظ كاستعمالها في مجال العبادات، أو كان استخدامها لتلبية المتطلبات المادية كما في مجال المعاملات. وهنا سوف أتناول -بإيجاز- ملامح فقه المياه من حيث اتصاله بمقاصد الشريعة في مجال العبادات، مع بيان الصلة بمقصد حفظ النفس على نحو خاص.

فقه المياه في العبادات وحفظ النفس

نجد في كتب الفقه أن "باب الطهارة"، هو أكثر أبواب فقه العبادات تفصيلاً وبيانًا لأحكام استعمال المياه من أجل "التطهر"، والنظافة البدنية/الحسية، كشرط واجب لأداء بعض العبادات وخاصة الصلاة، والحج، أو لأداء فعل مستحب مثل تلاوة القرآن الكريم. ولعل ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية في كثير من مناطق المجتمعات الإسلامية في العصور السابقة، كانت من الأسباب التي دفعت أغلبية الفقهاء للإسهاب في بيان أحكام المياه المتعلقة بأداء العبادات، تحريًا للدقة في توفير شروط صحة العبادة؛ باعتبار أن "الطهور شطر الإيمان" كما قال الرسول ﷺ. أما اليوم فقد زالت أغلبية الظروف التي أوجبت ذلك الإسهاب، وأضحى من اليسير التحقق من طهارة الماء لدى الأغلبية الساحقة من الناس، حيث تكفلت إدارات الدولة الحديثة بهذه المهمة عبر مؤسسات أو هيئات متخصصة في شؤون المياه وكيفيات معالجتها وتقديمها وفق شروط الصحة والسلامة العامة. وعليه فإن قواعد فقه المياه في العبادات باتت في أغلبها معلومة، وأضحى المطلوب هو أن يتعرف الجمهور العام على هذه القواعد بشكل مجمل، وأن يتعرفوا بشكل تفصيلي على مقاصد استعمال المياه في مسائل العبادات وما هي آداب استعمالها، وما محاذير هذا الاستعمال وكيفية تفادي الأخطار التي قد تصيب الإنسان إذا كانت المياه غير مطابقة لشروط الصحة والسلامة. أما بقية التفاصيل التي قالها قدماء الفقهاء، فلا غناء في أغلبها اليوم من الوجهة التطبيقية أو العملية.

وكم كان المرحوم الشيخ أبو زهرة حكيمًا في جوابه على أحد طلابه في خمسينيات القرن الماضي، عندما سأله عن سبب "شطب باب الطهارة" من دروس الفقه التي كان يلقيها على طلاب كلية الحقوق بجامعة القاهرة آنذاك، قال له رحمه الله: "لأن دورات المياه الحديثة قد تكفلت بهذا الباب"[1].

وفي ضوء ما سبق، فإن الإطار العام الذي يكفي لمعرفة مقاصد فقه المياه في مجال العبادات، يمكن أن يكون كالآتي:

١- إن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان، وخاصة في استعمال المياه نظرًا لاحتمالات إصابتها بالأوبئة والأمراض الفتاكة.

٢- إن أغلب الماء الذي يستعمله الناس في المدن والأرياف في مجتمعاتنا المعاصرة، طاهر في ذاته مطهر لغيره بمسؤولية الهيئات الحكومية المعنية بإدارة وتشغيل مرفق المياه والصرف الصحي، ووجوب خضوعها للرقابة والمساءلة الدورية.

٣- وجوب التزام مبدأ الاقتصاد وعدم الإسراف في استعمال الماء لغرض الوضوء، أو أداء العبادات والاحتياجات الدينية عامة. وإذا كان الإسراف في الماء منهي عنه في الوضوء، فإن النهي عنه أشد وأقوى في الاستعمالات الأخرى، باعتبار أن الإسراف من عوامل

hiramagazine.com

صحيح أن قدماء الفقهاء قرروا قواعد عامة لا تزال صالحة إلى اليوم في التعامل مع المياه، ولكن ثمة مطارحات مطولة بين فقهاء المذاهب بشأن "حكم الماء إذا خالطته نجاسة" نتصور أن أغلبها لم يعد ذا صلة بواقع المياه في واقعنا المعاصر.

الخلل في منظومة التوازن البيئي وإهدار مواردها.

٤- إن ثمة عدة أنواع من المياه يجوز استخدامها من أجل التطهر لأداء العبادات (ماء المطر-ماء البحر-الماء المتجمع من ذوبان الثلج والبرد-ماء النهر-ماء البئر-ماء العين؛ ما دامت هذه المياه مستوفية للمواصفات الصحية).

٥- الاستعاضة بالتيمم في حال تعذر وجود الماء، أو إذا كان شحيحًا لا يكفي إلا لشرب الإنسان أو الحيوان وفق أولويات الاستعمال في الشرب، للمحافظة أولاً على حياة الإنسان ثم الحيوان ثم النبات.

٦- ثمة استثناءات لا تنطبق عليها الملاحظات السابقة ومنها: المناطق والمجتمعات التي لم تصلها شبكات المياه والصرف الصحي، وهذه تحتاج إلى توجيهات خاصة حسب ظروف واحتياجات كل منطقة، وحسب ما هو متوافر فيها من مصادر المياه.

٧- يخرج الماء عن صلاحية استخدامه للطهارة في مسائل العبادات إذا ثبت تلوثه بملوثات ضارة بالصحة، أو إذا خالطه ما غير لونه أو طعمه أو رائحته.

ولكن ما نلاحظه هو أن الاجتهاد الفقهي الحديث والمعاصر، لم يخرج حتى اليوم عن هذه المعايير الثلاثة التي قال بها الفقه القديم بشأن صلاحية المياه للاستعمال الآدمي بشكل خاص، دون إعمال جدي لمقصد حفظ النفس ومقتضياته في ظل زيادة مخاطر المياه على الصحة العامة. وأغلب آراء قدماء الفقهاء تشير إلى أن علل خروج الماء عن صلاحيته للطهارة أو للاستعمال الآدمي، تتركز في الأضرار الصحية التي قد تترتب على استعمال الماء في حال طرأ عليه ما يخرجه عن حالته الطبيعية بتغير طعمه أو لونه أو ريحه وكونه -في هذه الحالة- لا يجزئ في الطهارة. ولم يستثن الفقهاء من هذا الحكم العام إلا ما سموه "الماء المقيد"؛ وهو الذي تغيرت أحد أوصافه الثلاثة أو كلها، نتيجة خلطه بمواد مثل اللبن والقهوة والشاي وماء الورد والعنب والرمان ...إلخ على ما ذهب إليها الشيخ بن باز في بعض فتاويه مثلاً[٢].

وفي ضوء تفاقم مشكلات تلوث المياه وما ينتج عنها من أضرار صحية وبيئية، لم يعد مناسبًا أن يكتفي الفقهاء المعاصرون باستدعاء اجتهادات أسلافهم في هذا الباب. لقد أدى قدماء الفقهاء دورهم فيما ذهبوا إليه، وفيما أداهم إليه اجتهادهم ضمن معطيات أزمانهم وما كان فيها من مشكلات مختلفة. أما الفقهاء المعاصرون ومجامعهم الفقهية فلم يقوموا بدورهم، ونراهم جامدين على اجتهادات أسلافهم دون تبصر إلى مستجدات الواقع وما أنتجه التقدم الصناعي والتكنولوجي من ملوثات هائلة كالإشعاع النووي، أو التلوث الجرثومي أو البكتيري، لا يغير لون أو طعم أو ريح المياه. ولو طبقنا على مثل هذا الماء معايير تغير "اللون والطعم والرائحة"، فلن يقل أحد بعدم جواز استعماله؛ هذا رغم خطورة تلوثه غير المرئي وغير المشموم وغير المتذوق، ورغم أن تلوثه هذا يتسبب في إصابة الإنسان بعديد من الأمراض الفتاكة التي تودي بحياته، أو تتركه عليلاً عاجزًا لفترات طويلة.

لم يتعرض الفقهاء المعاصرون إلى مشكلات تلوث الماء وإصابته بمسببات الأمراض الفتاكة؛ ولا نكاد نجد في كتاباتهم أو دروسهم الفقهية أو المقاصدية مثالاً شارحًا من تلك الملوثات؛ رغم كثرة مصادرها وشيوعها في الواقع الذي يعيشونه. ومن هذه الملوثات: الملوثاتُ الكيماوية، والإشعاعية، والنووية، والبيولوجية، ومياه الأمطار الحمضية. وتأتي هذه الملوثات من مصادر متعددة أهمها: مخلفات الصرف الصناعي، ومخلفات الصرف الصحي، والصرف الزراعي، والمبيدات الكيماوية الزراعية، والنظائر المشعة، والطحالب السامة، والنفط بمشتقاته، والنفايات النووية، وتساقط الغبار الذري في مجاري الأنهار والقنوات، والتسريبات من المفاعلات النووية. وتشير البحوث المتخصصة إلى

hiramagazine.com

أن مخاطر التسرب الإشعاعي تتسبب في تلوث المياه لمدد تتراوح بين أيام وشهور قليلة، وتصل إلى آلاف السنين في بعض الحالات؛ منها تلوث المياه بالكربون المشع الذي يستمر ٥٨٠٠ سنة[٣].

وفي كثير من حالات التلوث بتلك الملوثات، يظل الماء دون أي تغير في لونه أو طعمه أو ريحه، ولا يمكن اكتشاف تلوثه إلا بأجهزة خاصة وبالغة التطور لا تتوفر إلا في معامل ومختبرات حديثة ومتطورة. وهذا يدعونا أيضًا إلى مناشدة الفقهاء المعاصرين، كي يراجعوا مفهوم "النجاسة" الذي اعتبره قدماء الفقهاء علامة على خروج الماء عن صلاحيته للاستعمال في الطهارة أو في غيرها من الأغراض الآدمية. فنجاسة الماء كانت -ولا تزال- تعني في مفهوم الفقهاء أن يتغير طعمه أو لونه أو ريحه نتيجة اختلاطه بالمستقذرات التي تحدّث عنها قدماء الفقهاء، ولا يزال يرددها الفقهاء المعاصرون دون تعديل أو إضافة، ومنها البول، أو الغائط الآدمي، أو أبوال وأرواث الحيوانات، والدم، وجيفة الميتة كالفأرة، وسؤر بعض الحيوانات كالكلب والخنزير. وفيما عدا ذلك لا نكاد نجد في أبواب فقه المياه -قديمه وحديثه- إشارة إلى مصادر أخرى لتنجيس المياه، وجعلها غير صالحة للاستعمال سواء في الطهارة أو الشرب أو الري أو الصيد، ويجعل إسهام المياه في تحقيق مقاصد الشريعة تحوطه مخاطر كثيرة، منها ما قد يزهق نفس الآدمي، أو يهلك الحيوان والطير والنبات والأحياء المائية، أو يضر البيئة ضررًا لا خلاص منه.

صحيح أن قدماء الفقهاء قرروا قواعد عامة لا تزال صالحة إلى اليوم في التعامل مع المياه، ومنها -مثلاً- تقسيمهم النجاسة إلى عينية وحكمية، ومنها تحريم تنجيس الماء الطاهر على ما جاء مثلاً في "البحر الرائق" قال: "تنجيس الطاهر حرام"، وما جاء في "بدائع الصنائع" من أنه "لا يجوز تنجيس الطاهر من غير ضرورة". ومنها كذلك ما حكاه غير واحد من الإجماع على أن الماء المتغير بالنجاسة يصير نجسًا[٤]. ولكن ثمة مطارحات مطولة بين فقهاء المذاهب بشأن "حكم الماء إذا خالطته نجاسة"؛ نتصور أن أغلبها لم يعد ذا صلة بواقع المياه في واقعنا المعاصر. وما يستحق النقد الشديد في هذا السياق، هو أن الأمثال الشارحة التي استخدمها قدماء الفقهاء لبيان أحكام نجاسة المياه -وأشرنا إليها قبل قليل- لا تزال حاضرة إلى اليوم في أبواب فقه المياه دون تجديد يستوعب مصادر تلوث المياه وإخراجها عن طهوريتها. ولا يقع اللوم على قدماء الفقهاء؛ فقد أدوا ما عليهم في ظروف عصرهم، وإنما يقع اللوم على الفقهاء المعاصرين الذين يكتفون باجترار ما قاله أسلافهم، ويتهيبون من تجديد الأمثال الشارحة في دروسهم الفقهية والمقاصدية معًا.

ولا أظن أنه يغيب عن فطنة الفقهاء المعاصرين ولا عن مجامعهم الفقهية قواعد رفع الضرر وتجنبه، ولا يغيب عنهم ما وضعه أسلافهم من قواعد كلية لا تزال صالحة للتصدي لمشكلات المياه وما تحمله من مخاطر على الأنفس والثمرات ومجمل الأحياء والبيئة، ومنها القاعدة المقررة عند الحنابلة والتي تقول: "كلُّ ماء طهور في استعماله ضررٌ فهو في حكم العدم"[٥]. وأعتقد أن المشكلة هي في الأمثال الشارحة لهذه القاعدة وما شابهها، إذ لا تزال الأمثال الشارحة لها في الدرس الفقهي اليوم، هي نفسها الأمثال الشارحة لها في الدرس الفقهي قبل أكثر من ألف سنة. والمطلوب هو تجديد هذه الأمثال من واقع الراهن وما فيه من مشكلات وتحديات مائية هائلة. ■

(*) أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة / مصر.

الهوامش:

(١) روى لي هذا الخبر أحد الذين عاصروا الشيخ في تلك الفترة في محاولة لي معه يوم ٢٠١٤/٥/١.

(٢) انظر مجموع فتاوى الشيخ بن باز على موقع طريق الإسلام.

(٣) صاحب الربيعي، تلوث المياه الجوفية، بحث منشور على موقع www.waterexpert.se

(٤) منهم الإمام الشافعي، والطحاوي (الحنفي)، والباجي (المالكي)، وابن المنذر من المحدثين.

(٥) الكليات الفقهية وحكم التشريع في باب المياه عند الحنابلة، لعبد الله بن مبارك آل سيف، ص:٥٣.

hiramagazine.com

أ.د. عرفان يلماز*

حديث الأخطبوط الذكي

مرحبًا يا من خلقه الله في أحسن تقويم. أنا الأخطبوط، جئتك من قيعان البحار لأحدثك عن نفسي وأقص عليك عجائب خلقي. أعرف أنك تستغرب من شكلي وتصميمي، ولكن لم أفهم حتى الآن، سبب خوفك مني واختراع القصص المرعبة حولي!؟ أنا في الحقيقة حيوان خجول جدًّا لا أحب إظهار نفسي كثيرًا، ولعل حرفتي في الاختباء جاءت من خجلي هذا. أحب العيش في قيعان البحار، وأفضّل في غالب الأحايين استيطان أخاديد الصخور والشعاب المرجانية في جميع المحيطات، حيث أتميز بالتكيّف والتأقلم السريع مع ظروف المياه الساخنة والباردة.

جسم بلا عظام

إن جسمي أملس ورخو للغاية، ورخاوته هذه تأتي من عدم وجود هيكل عظمي فيه ما عدا كبسولةِ غضروفٍ يحمي المركز العصبي في رأسي. يَنْسبني علماء البحار إلى عائلة الرخويّات (Mollusca)، أو إلى فصيلة الرأس قَدَميّات الرخويّة (Gastropoda)، وذلك لتمتّعي بأذرع عديدة تتصل برأسي. جميع الفقاريات تتحلّى بهيكل عظمي يسهّل لها الحركة ويحافظ على شكل أجسامها، أما اللافقاريات فتغطّى أجسامها بغطاء صلب يتكوّن من مركب "الكيتين"، وكوني من اللافقاريات، فجسمي بطبيعة الحال يخلو من الهيكل العظمي، ولكن هذا يوفر لي التحرّك السهل والسريع إلى حدٍّ كبير.

فكما أن الهيكل العظمي نعمة عظيمة ومزية كبرى لديكم أنتم البشر، فإن عدم وجوده لديّ نعمة ومزية كبرى أيضًا. لقد خلق لي ربي أعضاء متناسقة مكمِّلة لبعضها البعض لأتمكّن من البقاء على قيد الحياة وأواصل حياتي اليومية. إن عدم وجود الهيكل العظمي لديّ يجعل جسمي مرنًا للغاية، وهذا يساعدني بالدخول إلى تحت الصخور عبر شقوقها الصغيرة لإيجاد مسكن أسكن فيه، أو لإيجاد غذاء أقتات عليه.

أعضاء في كيس

عندما قام العلماء بتشريح جسمي، ذهلوا من تصميم أعضائي الداخلية؛ إذ وجدوا أن القلب والمعدة والكلية داخل جسمي المرن الشبيه بالكيس، قد وُضعتْ بعناية فائقة. إن قلبي يتكوّن من ثلاث غُرَيفات متصلة ببعضها البعض، كما أن دمي يجري باللون الأزرق، والسبب هو وجود الهيموسيانين المركب من الصباغ النحاسي بدلَ الصباغ الحديدي الكائن في الهيموغلوبين الذي يضخ الأكسجين داخل أجسامكم. أما الغدد اللعابية في القناة الهضمية مع المختبر الطويل الملتوي والمتكوّن من المعدة والكبد والمعي الأعور؛ يقومان بهضم ما تناولتُه من طعام، ثم ينتقيان منه المواد الغذائية ويتم إرسالها إلى دمي ومن ثم توزيعها إلى جميع أطراف جسمي. كما أن خياشيمي التي تضخ الأكسجين الذائب في الماء، متموضعة داخل جسمي أيضًا. بالإضافة إلى ذلك، إني أملك غدّتَين كليويَّتَين تقومان بطرح فضلات أيض النيتروجين إلى الخارج، ونتيجة لهذه العملية يتم تنقية دمي من المواد المضرة ومن ثم أحمي نفسي من التسمم. ولا بد أيضًا أن أذكر لك -عزيزي الإنسان- أن لساني مكسوّ بطبقة تشبه الجلد المدرَّع بالأسنان الصغيرة والحادة وهي التي تساعدني على تفتيت الطعام وتقطيعه.

كيفية التحرك لديّ

أستخدام التجويف داخل جسمي لامتصاص مياه البحر ثم ضخّه مرة أخرى إلى الخارج عبر قناة تسمى القمع، وذلك لأندفع بسرعة كبيرة بالاتجاه المعاكس، تمامًا مثل البالونة المنتفخة التي تندفع بالاتجاه الخلفي بقوة الهواء الذي يخرج من فوهتها. وأنتم البشر تطبّقون هذه الآلية على تقنية الطائرات الحربية التي ساهم في صناعتها مئات العاملين وعشرات المهندسين بعد خبرة سنين طويلة، ولكن ربي الذي أتقن كل شيء خلقه، أوجدني بـ"كُنْ" فقط، دون عي منه ولا تعب.

حرفة التمويه لديّ

إن بعض الباحثين يطلق عليّ اسم "حرباء البحر"، ولعلهم محقّون في ذلك؛ لأن أهمّ خصوصية أتحلّى بها هي تغيير لوني بشكل سريع للغاية، حيث أقوم -عند الاضطرار- بتغيير لوني وفق لونِ ونقوش المحيط الذي أحلّ فيه وبشكل أسرع من الحرباء البرية. علمًا بأن موهبة التمويه لديّ وتمتّعي بهذه الميزة البديعة لم تظهر فجأة نتيجة جهدٍ من مخلوق عاجز مثلي، بل إن صاحب القدرة الأزلية والرحمة الأبدية هو مَن وهبني هذه الميزة العجيبة، وهو -كذلك- العليم الخبير الذي جهّز جلدي بخلايا اللون وخلايا عاكسات الضوء، وربط حركتها بنظام الجهاز العصبي لدي لأغير لوني حسب ما أريد.

مَن يقول إني غير متطور؟

إني أستغرب كثيرًا من الذين يسعون -وبإلحاح- وراء نشر نظرية التطور التي تطلق ادعاءات باطلة؛ من قبيل أن الحيوانات اللافقاريات -مثلي- متخلِّفة أو غير قابلة للتطوّر. ولكن ينسون أن صفة البساطة والتخلّف وعدم القابلية للتطوّر هي تعابير نسبية تتبلور حسب

hiramagazine.com

يستطيع الأخطبوط من خلال المِمَصّات في أذرعه، أن يلتصق بقوة بأجسام الحيوانات أو الكائنات الأخرى، إذ يوجد في كل ذراع ٢٤٠ مِمَصة. ومن خلال المستقبلات الكيميائية المتموضعة في أطراف هذه الممصات، يتمكّن الأخطبوط من شمّ الكائنات وتذوّقها.

رغبة الشخص ووجهة نظره. علمًا بأن كل حيوان يتميز بخصوصية أو يتحلى بعضو يتناغم وطبيعتَه يساعده على البقاء على قيد الحياة؛ كسمك القرش الذي يتميز بحاسّة الشمّ، والصقر الذي يتميز بحاسّة النظر، والخفافيش وسمك الدلفين اللذان يتميزان بحاستي السمع وإصدار الأصوات. لا سيما وإن هذه الحيوانات بهذه الخصوصيات التي مُنحتْ لها، تفوق الإنسان بكثير. وكذلك أنا -الأخطبوط- الذي أبدوا كائنًا بسيطًا من حيث الشكل الخالي من العظم، أتميز بخصوصية تغيير اللون بطريقة سريعة جدًّا. لذلك ينبغي أن تنظروا إلى خصوصية كل حيوان بعين الحكمة، وبقصد معرفة الخلقة المتناغمة مع طبيعة حياة ذلك الحيوان، وليس بعين التخلّف أو التقدم، النشوء أو الارتقاء.

يقولون عنّي "ذكي"

إن الذين اعتبروني كائنًا غير صالح للتطوّر والنشوء لكوني من اللافقاريات، أدركوا -فيما بعد- أنهم على خطأ عندما وجدوا بعد بحوثهم أني أتمتع بخصوصية تغيير اللون إثر التوتر أو الغضب، وأني أتميز بحركاتي الذكية وبقابليتي على التعلّم السريع. ولعلّي لا أبالغ إذا قلتُ لكم؛ إني أذكى حيوان بين اللافقاريات البحرية. ومما يجب الإشارة إليه أن العُقَد العصبية لمراكز الحواس في رأسي والقريبة من بعضها البعض، تشكّل نموذجَ دماغٍ معقّد للغاية لديّ. لا أدّعي -طبعًا- أني أذكى منكم أنتم البشر، ولكن هذه المقارنة بيني وبين شقيقاتي الحيوانات فقط. وعن طريق هذا الذكاء الذي وهبنيه الله لإدامة حياتي، أقوم بإنجاز أعمالي بشكل سهل ويسير. مثلاً، أقوم بوضع حجر صغير بين صدَفتي بلح البحر لأمنعه من الانغلاق، ثم أُدخل ذراعي من هذه الفتحة وأتناول ما في داخل هذا الكائن. ليس هذا فحسب، بل أستطيع أن أدوِّر غطاء الجرة حتى أُخرج القريدس الموجودة فيها أيضًا. ولكن أرجوكم، لا تُرجِعوا كل هذه الأفعال الذكية والمعقدة إليّ، إنما أنا فقط أتحرك بإلهام من ربٍّ عليم.

حدَقة مستطيلة

لقد اكتشف العلماء منذ سنوات عديدة التصميم المتميز لعيوني؛ اكتشفوا أن في عيوني عدسة كعدسة الفقاريات، وشبكة عين تحتوي على ٢٠ مليون خلية تؤدي مهام استقبال الضوء، وحدَقة عيني مستطيلة تشبه الكاميرا الفوتغرافية والغرفة المظلمة للصور. إني أستطيع بعيوني هذه، أن أرصد كل ما يحيط بي في زاوية ١٨٠ درجة دون تحريك رأسي قيد أنملة. ولقد أخطأ مرة أخرى أصحابُ نظرية التطور الذين أسندوا كل ما في الطبيعة إلى الصدفة، عندما أسندوا هذه الصدفة أيضًا إلى عيوني؛ وذلك لأن عيوني جُهِّزتْ بآلية بديعة تقدر على رؤية الموجات الضوئية التي تهتز ٧٠ مرة في الثانية الواحدة. أنشدكم الله أيها الناس، أيعقل أن توجد آلية بهذه الدقة صدفةً؟! إنها لعمري آلية لا يهبها لكائن ضعيف مثلي إلا خالق عليم خبير يسجد له كل مَن في السماوات والأرض.

إفرازاتي السامة

إن نوع الأخطبوط صاحب الحلقة الزرقاء، يتميز بإفرازه السمّ القاتل، إذ يستطيع قتل فريسته خلال دقائق بلسعة واحدة فقط. وفضلاً عن هذا النوع الخطير منّا، فهناك أنواع سامة أخرى ولكن غير مؤذية للإنسان. في الحقيقة لا أحد منّا يلسع إنسانًا لم يتحرّش به ولم يستفزّه. إني أستخدم عضلات فكّي الصلبة المصنوعة من الكيتين والشبيهة بالمنقار، عندما أصطاد الأسماك الصغيرة، وأصطاد القشريّات من السلطعون، وسرطان البحر، والقريدس.

التجدد السريع

إن أذرعي الثمانية المتصلة برأسي هي كل شيء بالنسبة لي، حيث أستخدمها في السباحة، والتسلق، وفي مواجهة العدو، والإطباق على الفريسة، وكذلك في بناء بيتي. كما أستطيع من خلال المِمَصّات في أذرعي، أن ألتصق بقوة بأجسام الحيوانات أو الكائنات الأخرى. هذا وقد يوجد في كل ذراع لي ٢٤٠ مِمَصة، ومن خلال المستقبلات الكيميائية المتموضعة في أطراف هذه الممصات، أتمكّن من شمّ الكائنات وتذوّقها، ومن ثم أقرّر تناولها أو عدم تناولها. ولا بد من الإشارة إلى نقطة مهمة في هذا الصدد، وهي أني عندما أقوم أحيانًا بالهروب من ثعبان السمك، والدُّلْفين، وسمك القرش، وبعض ثدييات البحر، يُبتر ذراع من أذرعي الثمانية، ولكن أحمد الله تعالى أن زوّدني بنظام يُعيد لي الذراع المبتور خلال ستة أسابيع، فيخرج ذراع جديد مكانه يؤدي مهامه التي كان عليها سابقًا. فأحمدك اللهم على هذه النعمة العظيمة التي وهبتني إياها.

أما شَعري فيتراوح طوله ما بين ٥ سم إلى ٥ أمتار. حجم جسمنا صغير، ولكن طول الأذرع لدينا يصل إلى ٥ أمتار، وهذا بطبيعة الحال يضخمنا في نظركم. إننا لا نقوم بأي فعل يؤذيكم أيها البشر، وإن التصقنا بأحدكم في البحر من دون شعور، فلا تخافوا ولا ترتبكوا، عليكم فقط أن تهدأوا قليلاً، لأن معظمنا لا يحب الكائنات الهادئة التي لا تتحرك، حيث يتركها ويبتعد عنها بعد فترة قصيرة من الزمن.

التوازن البيئي العجيب

تضع أنثانا ما يقارب الـ١٥٠ ألف بيضة، ثم تمكث لرعاية وحماية بيضها مدة تتراوح من شهر إلى شهرين؛ إذ تنظف البيض من الطحالب والبكتريا وتنفث عليه بين الحين والآخر المياه حتى يصل إليه أكبر قدر من الأكسجين، بالإضافة إلى إخفاء بيضها من العدو حتى تفقس. ولكن رغم ذلك، نفقد أكثر من ثلثي هذه الأفراخ كطعمٍ للأسماك. أما الأفراخ الباقية على قيد الحياة، تنمو للتكاثر وإدامة نسلنا. ولا شك أن هذه حكمة إلهية في إقامة التوازن البيئي لا يدركها إلا أولي النهى.

لا أريد أن أثقل عليك أيها الإنسان بالتفاصيل المملة، فأكتفي بهذا القدر من الحديث. أرجو أن أكون أفدتُك بهذه المعلومات البسيطة التي تجلّتْ في جسمي وأزاحتْ الأستار عن القدرة الإلهية في هذا الكون الفسيح. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

hiramagazine.com

أديب إبراهيم الدباغ*

الإنسان والإيمان

لا يزال "فتح الله كولن" يواصل فتوحاته في مجاهيل عالَم الوجدان البشري، ويبني ما يتداعى من جوانب هذا الوجدان على أساسٍ من "معرفة الله". وهو يدرك ويأسف في الوقت نفسه لأولئك الذين يحرصون على إبقاء "البشرية" اليوم في جوع روحي أبدي ولا يريدون أن ينقضي أو أن ينتهي، مصمين آذانهم، ومديرين ظهورهم لصرخات الألم التي يطلقها هذا الوجدان، مما تعاني منه أشواقه الرفيعة من اختناق ومن ضغوط وقيود.

إن الفوضى الأخلاقية العارمة التي تجتاح العالَم اليوم، مردها إلى فراغ الوجدان من المعرفة الإلهية لدى إنسان اليوم، وتنكره لمناقب الخير والعدل والحق، التي أرسى عليها الله تعالى قواعد عالمي الغيب والشهادة.

فـ"كولن" لا ينفكُّ يحذر الإنسان من أن هروبه من وجه الله تعالى سيدفع به إلى متاهات هائلة يغيب فيها عن نفسه طوال حياته، فيرى نفسه -والكون معه- عبارة عن خليط عشوائي مضطرب تحركه قوى عمياء لا تدرك شيئًا مما تفعل.

فالبشرية اليوم غارقة في طوفان من الأفكار والمعتقدات، غير أن غالبية هذه الأفكار والمعتقدات لا تبدي الاهتمام المرجو بقضايا الإيمان والوجدان، وتقف في أخصب أفكارها وأبعد آفاقها، عند عتبات المتناهي والنسبي في القضايا التي تعالجها، الأمر الذي سبب للبشرية مزيدًا من الالتصاق بالأرض والتمرغ بترابها، والمزيد من الاختناقات الوجدانية والإيمانية، والمزيد من التعطش الروحي الذي يكاد يبلغ حدَّ الاحتراق.

إن خمود الجذوة الانفعالية في الوجدان البشري بقضايا الربوبية والألوهية، هو موت لهذا الوجدان، وبالتالي فهو موت للإنسان في أسمى جوانبه الإنسانية والأخلاقية. فافتقار الوجدان لهذه المعاني العالية التي تحبب إلى نفسه جنس الإنسان، قد ينقلب إلى حقد وكراهية ضده، كما لمسنا -ولا زلنا نلمس ذلك- في الأيدلوجيات التي تعتمد فلسفة الإنكار والجحود محورًا لسلوكياتها الإنسانية مع نفسها ومع العالم من حولها. فالإنسان إذا ما وعى حقيقة إنسانيته، لا يستطيع قبول وجوده الأرضي من دون أن يكون على صلة بوجودات أخرى تعطيه الأمل بالبقاء والخلود الأبديين واللذين يمثلان تبريرًا ميتافيزيائيًا لوجوده فوق هذه

الأرض. فالنفس لا تشعر بأنها حيّة ومفعمة بالحياة، إلا إذا ارتعشت بكلّيّتها وهي في حالة تماس روحي مع العوالم الغيبية التي تظل ترسل بإشعاعاتها إلى ظلمات قلوبنا لعلّنا ننتبه إليها ونقوم بالانحناء تعظيمًا لها وتقديرًا وشغفًا بالجلال والجمال اللانهائيين اللذين تتجلى بهما على عالمنا الأرضي. وقد يدفعنا هذا الشغف العارم إلى أن نرسل أرواحنا وإراداتنا بعيدًا لكي يصبحا جزءًا لا يتجزأ من روح هذه العوالم وإراداتها.

ويرى "كولن" أن الوجدان البشري، له من السَعَة ما يستطيع بها احتواء جميع الأفكار التي تجول في عقل الإنسان، وفي هذا الوجدان تتأصل هذه الأفكار وتصبح مكينة فيه بحيث يستحيل استئصالها منه. فالأفكار المستنبتة في حديقته، تستعصي على كل معاول الهدم من قبل الملحدين والجاحدين، وعلى العكس من ذلك الأفكار التي ليس لها سند وجداني.

وأغلب ظني أن هذه الفكرة، هي التي بنى عليها "كولن" قواعد كتابيه الفذين "ونحن نقيم صرح الروح" و"نحن نبني حضارتنا"؛ فهذان الكتابان في المحصلة النهائية، هما عبارة عن مزيج عجيب من العقل والوجدان، يترادفان ويمشيان معًا خطوة بخطوة. و"كولن" يرى كذلك أن للحياة نفسها عقلاً وأفكارًا، ولها نبض ووجدان، وإن كانت هذه الأفكار قد حولتها الحياة إلى سنن ونواميس ودساتير، فالدخول إلى باحة الحياة من دون الاستئذان من هذه النواميس والدساتير والسنن، مغامرة لا تحمد عقباها، وربما غضبت علينا الحياة وطردتنا من موطنها إلى الأبد.

أما أصحاب الوجدان الرفيع، فهم على الدوام موضع ترحيب من الحياة، لأنهم يظلون يضربون في معارج الرقي ولا يقفون عند حد، بل يمضون حيث يمضي بهم هذا الرقي ولسان حالهم يقول: خلُّوا سبيلنا، ودعونا نضرب في الأعالي، وإلى حيث ينتهي بنا المطاف إلى "قاب قوسين" أو أدنى من روح الوجود وقمة الخلود. وهناك يخرُّون سجدًا شاكرين الخالق الذي وهبهم هذا الوجدان الكبير وقد سما بهم هذا السمُّو العظيم. وأمثال هؤلاء هم الذين سيبعثون في البشرية القوة والأمل لمواصلة حياتها في إطار من الخلُق والفضيلة والإيمان.

هذا الإيمان المتسامي المتَّسع لكل الأفكار الطاهرة والصادقة، حتى إنه ليرسل في كل نبضة من نبضاته دفعة حياة من منابع الأبدية إلى روح الإنسان ليحيا بها ويتغذى عليها، دافعة إياه في الوقت نفسه للالتفات الجاد نحو الكون والكائنات من حوله، وعقد صلة وُدٍّ وتعارف بينه وبينها، فما أسرع -عند ذاك- ما تأتيه الأفكار شُرعًا لتزيد في اتساعه وعمقه، فيظل في لهفة محمومة إلى المعرفة طوال حياته يتساقاها كأسًا بعد كأس وكأنه في يوم عيد مهرجاني، يتهادى فيها الأفكار وكأنه قد قام للتَّو من شلل روحي وسُقم نفسي. فالفكر الذي كان قد استحوذ على عقل "كولن" ووجدانه في فترة التأمل ومراجعة النفس، واستولى على معاقد فكره، وانسرب إلى طوايا نفسه وخلايا عقله، انبثق عنه من خلال لهب فكري مضيء، يلقح الأنفس والعقول والأرواح، ويدفعها لتخوض تجربة روحية جديدة في دورة انبعاثية، للخلاص من شقائها القتّال المميت. فأفكاره العالية وإن كانت غاية في السمو والعلو، إلا أنها طريقة حياة، وأسلوب عيش مختلف عن كل ما تعرفه هذه الشعوب من طرق حياة وأساليب عيش.

فإذا كانت الأمم تفخر وتتباهى بأعظم أحداث تاريخها، غير أنها لا زالت ترى الحدث الأكبر هو أن ينجم من بين صفوفها "الرجل المفكر" القادر على إخراج فكرها من تشبثه وفوضويته، وانبعاث ما اندثر من وجدانها، وإرواء ما جفّ من خيالها ومشاعرها، فيمسك بأزمّة أفكارها، ويبتعث أضوأ أيام تاريخها، ويعيد إليها نفسها الضائعة، وذاتها الذائبة، وهويتها المسلوبة، وقدراتها المشلولة... إنه فاتح أفكار، وباعث أرواح، ومشعل أضواء، ومثير أشواق.

وأي مؤرخ يريد أن يؤرخ لتاريخ الفكر في تركيا الحديثة، فإنه بلا شك سيرى في "فتح الله كولن" واحدًا من أكثر مفكري تركيا تأثيرًا في فكر شعبها ووجدانه، وكذلك في فكر ووجدان كل مَن تسنى له الاطلاع على كتبه وكتاباته. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

د. محمد باباعمي*

لا إله إلا الله

حقيقة المعرفة وأصل الوجود

كنت منتشيًا مسرورًا، أقلّب صفحات "بذور الرشد" في شبكة العنكبوت بنشوة العابد وروح الجندي، أصوغ "أسئلة وإشكالات" تارة، وأستنبط "القواعد الكلية" تارة، ثم أصِل الفكرة بالواقع "تشغيلاً وتفعيلاً" تارة أخرى؛ كأني في الحضرة القدسية أستمع وأنصت لسيد الأنام محمد ﷺ وهو يترنم بالقرآن غضًّا طريًّا، ينساب زُلالاً سلسبيلاً من شفتيه المباركتين، جميع ما حولي ومن حولي في عداد اللاشعور... لم يبق من "الوجود" في أعماق "وجداني" إلا "كلام الله الحكيم"، بل ما بقي شيء يُذكر إلا "هو" سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(القصص:٨٨)، ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٢٧).

مع بدايات سورة طه جلستُ صُبحًا، أحفِر حفرًا خفيفًا رفيقًا، منقِّبًا عن "القواعد الكلية" لفقه الحضارة المصاغة في "القرآن الكريم"، مما يعالج "سؤال الأزمة" المحورِي في "نموذج الرشد": "حركية الفكر والفعل"؛ وانتهيت في الآيات والسطور الأولى من السورة الطيبة إلى قوله جل شأنه: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(طه:٨).

جمدت أوصالي، اغرورقت عيني، تباطأ تنفسي، تشنَّج مخِّي، سرت قشعريرة في عروقي... ثم سألت نفسي متعلِّمًا لا مجادلاً، ولقد كان صوت الأذان العثماني يصدح من كل مكان حولي: "أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله... لا إله إلا الله"، سألت هذه النفس بين جنبيَّ:

هل هذه قاعدة كلية؟ وبأي اعتبار أسجّلها على أنها كذلك؟ لعلَّها من قبيل المسلَّمات والبديهيات العقلية؟ أو لعلَّها تصنَّف ضمن المبادئ والعقائد؟ أو أن لها اسمًا وتصنيفًا آخر غير الذي اعتدناه في سياق الدرس الحضاري؟

أسئلة تنزل عليّ متلاحقة كأنها الغيث وابلاً، غير

أنها قبل أن تجد الجواب العقلي المعرفي الإدراكي، اقتحمت صور القلب والروح والوجدان، فعملت عمل المبيد لكل الشوائب النفسية، ثم عملت عمل المعطّر لجنبات الدار غرفة غرفة، مترًا مترًا، شبرًا شبرًا. فلم تغادر هذه النفحات سويداء قلبي، وما كان لها أن تغادر إلا وقد أفاضت عليّ من "عوارف المعارف" ما لا يقدر اللسان ولا القلم على وصفه، بله تفسيره وشرحه.

ثم جاء دور العقل ليبحث عن "العلاقة" بين "لا إله إلا الله" والوجودِ من حوله، بل و"الوجودِ" في مخيّلته وذهنه وجهة الأزل من هنالك، نحو الأبد إلى هنالك، ثم انتقل منها إلى سبر حقيقة "العلاقة" بين "لا إله إلا الله" و"المعرفة" بجميع أنواعها وأشكالها، ومواضيعها ومناهجها، البارحة واليوم وغدًا، من يوم أشغل آدم عليه السلام عقله إلى يوم تموت فيه آخر "فكرة" في عقل إنسان: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۞ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾(يس:٤٨-٥٠).

غير أن بداية المشوار كانت مع القرآن الكريم نفسه، باعتباره "وجودًا ومعرفة"، أو إن شئت فقل "هو وجود بلباس المعرفة" و"هي معرفة بروح الوجود". فتتبَّعت "لا إله إلا الله" "لفظًا ومعنى" في آياته المباركات، ولم أتل آية واحدة من فاتحة كلام الله إلى خاتمته، خلت من علاقة بـ"لا إله الله": "تصريحًا" أو "تلميحًا"، "استلزامًا" أو "اقتضاء"، "علاقة سببية" أو "شرطية" أو "تراتبية" أو "تلازمية" إلى غيرها من العلاقات التي لا حصر لها، وهي تتجاوز حدود المنظَّر له في "منطق اللغة" وفي "لغة المنطق"، إلى "ما لا يدرك" من "منطق الوجود والحقيقة".

خُذ أيَّ آية تريد وأيَّ سورة تشاء وأيَّ مقطع تقترح، ثم اسأل: ما "علاقة" ما أنا بصدده بـ"لا إله إلا الله؟" تجد أمامك جيشًا من الحقائق التي لا تخطئها إلا العين المصرَّة على العمى، والأذن المصمّمة على الصّمم، والعقل الذي توقّف عن أداء مهمّته الفطرية، والقلب الذي لا يفقه به صاحبه شيئًا.

ولقد تتبعت ما ورد لفظًا وعبارة بصيغة "لا إله إلا الله" في كتاب الله العزيز، فوجدت أنه يفسّر العلم

ما دام الحق مشكاته "لا إله إلا الله"، وما دامت دنيا اليوم تجرع المسلمين كؤوس الذل والهزيمة والخذلان، فإن العودة الكاملة بالمنهج الكامل واليقين الحقيق والإيمان الصادق إلى حصن "لا إله إلا الله"، بات إجراء مستعجلاً عاجلاً، لا يقبل التباطؤ أبدًا.

حراء

والعمل، ويحرّك الفكر والفعل؛ ولقد ارتبط بجميع سياقات الخلق والوجود، من الأزل إلى الأبد، عالم الشهادة وعالم الغيب:

• ارتبط بصفات الله سبحانه الإلهِ الواحد، الرحمن الرحيم: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة:١٦٣).

• وبحياة الله تعالى الذاتية، وبقيوميته ومُلكه وعلمه جل مقامه: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(البقرة:٢٥٥).

• وبالتصوير في الأرحام وأسباب الخلق، وطلاقة مشيئته وإرادته تعالى، ثم بعزته وحكمه وحكمته سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(آل عمران:٦).

• وبحقيقة شهادة الله عن نفسه وهو العليم، وشهادة ملائكته على إثره، ثم شهادة أولي العلم الذين لم يغلفوا أسماعهم وقلوبهم بغشاوة الظلم والغرور: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(آل عمران:١٨).

• و"لا إله إلا الله" هي التفسير الوحيد لشرعية القيامة، ذلك أنه تعالى هو أصدق الصادقين، وكلامه أصدق الكلام: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾(النساء:٨٧). ولو أن خبر القيامة ورد من غير هذا السبيل، لما كان أهلاً أن يلتفت إليه، ولكن أنى ذلك؟

• و"لا إله إلا الله" تهديد مباشر لمن أنكرها وتعلّق بالتثليث، وفيها توعّد لمن تمادى في الكفر وقول الزور: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(المائدة:٧٣).

• وإذا ما سألت: "من خلق الخلق؟"، ثم سألت: "من

hiramagazine.com

هو أهل لأن يُعبد؟"، ثم سألت: "من الوكيل على أشياء الوجود كلّها إنسها وجنّها، حيوانها ونباتها ومادتها وكل ما يعلمه العقل أو لا يعلمه من الأعراض والجواهر؟". إن أنت سألت هذه الأسئلة في صفاء ذهن، بنيّة الإيمان والعمل الصالح لا لغرض الحفظ المجرد أو المماراة والمباهاة، إن سألت فستجد الجواب في: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ خَالِقُ كُلِّ شَـيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(الأنعام١٠٢).

• ولقد يخصّ الخطاب سيّد المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يعمّم على من اقتفى أثره واتبع نهجه، فتأتي "لا إله إلا الله" مثبّتة على الحق، داعمة في مواجهة الشرك والإعراض عن المشركين: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام١٠٦).

• وإذا ما تحيّر الناس في صدق الوحي، وفي أحقيّة النبوّة والنبي، وفي البحث عن مساحة رسالة النبي الأمي ﷺ، أهي لقومه وبني جلدته وكفى؟ أم هي للناس كافة وللبشر جميعًا؟ وإذا ما تفنّنوا في الاستدلال على صدق الرسالة بصدق الرسول ﷺ، وابتغوا إيمانهم تبعًا لإيمانه، فإن الآية تأتي ناصعة صداحة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(الأعراف:١٥٨).

• ولقد يُعرض الكثيرون، وقد يتولّون عن الإنصات لداعي التوحيد والهداية، هنا يأتي دور الاحتساب والتوكل على الله وحده: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(التوبة:١٢٩).

• ومن عجائب تاريخ الأمم والنبوّات، وتاريخ المترَفين والطُّغاة، أن الواحد منهم إذا تحقّق من الهلاك ورآه رأي العين، عاد إلى المرتكز، وفهم ساعتها معنى الوجود ومعنى الحياة بعد فواة الأوان؛ فهذا فرعون قالها ناقصة غير مكتملة، قالها فلم تنفعه، لأنه لم يتلفظ بها مؤمنًا وإنما مخادعًا جاحدًا كعادته: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(يونس:٩٠). ولقد أجيب بصريح العبارة: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(يونس:٩١).

• وجميعُ الرسل بلا استثناء، من لدن آدم عليه السلام إلى خير البرية محمد عليه الصلاة والسلام، جميعُهم حام حول حمى "لا إله إلا الله"، ودندن حولها، فلم يحدث أن دعا واحد منهم -مهما علا شأنه- إلى نفسه أو إلى مخلوق غيره، كل الأنبياء بلا استثناء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء:٢٥).

• ومثال ذلك "ذو النون" يونس عليه السلام، الذي التقمه الحوت وهو مليم، ولولا "لا إله إلا الله" تسبيحًا واستغفارًا للبث في بطنه إلى يوم يبعثون: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء:٨٧)، ولقد جاءت الاستجابة عاجلة، وجاء معها وعد من الله تعالى -هدية من السماء- أن من قالها مؤمنًا موقنًا محتسبًا، في أيّ ظلمة كان؛ مادية أو معنوية، ظلمة الجهل، أو ظلمة الشهوة، أو ظلمة الهمّ، أو ظلمة الظلم، أو ظلمة الفتنة... من يقلها بشروطها وأركانها، ينجّيه الله تعالى وعدًا منه والله لا يخلف وعده، غير أن تكرارها باللسان باردة لا يغيّر من الواقع شيئًا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنبياء:٨٨).

• "ولا إله إلا الله" تلخّص صفات الله الكمالية صفة صفة، وتنفي عنه ما لا يجوز في حقّه، وتعلو بالذكر إلى مقام "الإجابة" ثمرة لمقام "الاستجابة": ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الحشر:٢٢-٢٣).

• ما دام الأمر ما ذُكر، وما دام الحق مشكاته "لا إله إلا الله"، وما دامت دنيا اليوم تجرع المسلمين كؤوس الذل والهزيمة والخذلان مريرة حنظلاً غُصصًا.. ما دام الحال هكذا، فإن العودة الكاملة بالمنهج الكامل

hiramagazine.com

واليقين الحقيق والإيمان الصادق، إلى حصن "لا إله إلا الله"، بات إجراء مستعجلاً عاجلاً، فأيّ تباطؤ أو تلكؤ، سيطيل عمر الأزمة والمحنة إلى أمد: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(التغابن:١٣)؛ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾(المزمل:٩).

على الله توكلنا، حسبنا الله ونعم الوكيل.

أليست "لا إله إلا الله" بهذه الأبعاد، وبغيرها مما لم يسعه المقال ولن يسعه أي مقال لحقيقة ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾(لقمان:٢٧)، أليست هي "أم القواعد الكلية" لفقه الحضارة بل لفقه الوجود، ولفقه المعرفة، ولأي فقه آخر مما نفقه ومما لا نفقه؟ ولذا صح أن نطلق عليها صفة "أم القواعد" دون تخصيص ولا تقييد. فـ"لا إله إلا الله" لا تقتصر على جانب دون آخر من مكونات الحياة ومقدراتها، ولا هي خاصة بفن دون آخر، فلا هي قاعدة عقدية وكفى، ولا هي قاعدة فقهية فقط، ولا هي قاعدة حضارية ليس إلا، إنما هي قاعدة القواعد، وأصل القواعد، وأس القواعد: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾(محمد:١٩)، ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(الحشر:٢٢).

• ألقيت سمعي برهة وإذا بي أسمع ما حولي يردّد منشدًا سمفونية "لا إله إلا الله": تميرات على الطاولة، كأس ماء بما حوى، ساعة اليد حول معصمي، قلمي الأزرق المزركش، أثاث الصالون الأرجواني، أشعّة الشمس المتسللة إلى مقعدي، محمل المصحف الخشبي... أحشائي ودقّات قلبي... السماء الزرقاء من فوقي، طائر النورس بعيدًا يباهي السحب المفرّقة اللطيفة.

هو مهرجان للتهليل والتسبيح، لم أشهد له مثيل من قبل، لا حرم الله منه مسلمًا.

فما كان مني إلا أن نويت وسعيت، ثم التحقت بالركب مترنمًا: "لا إله إلا أنت سبحانك، لا إله إلا أنت سبحانك، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين". ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

لسان النور

تكلَّمْ، فالدَّور دَورك..
فقد أَظَلَّ زمانُكَ،
وأقبلتْ أيامُك..
الوجدان إليكَ يَهفُو،
والروح إليكَ يَرْنُو..
فتكلَّمْ وأَضِئْ،
والأنوارَ فأشعِلْ؛
حتى تضيء الدنيا،
ويُشرقَ العالَمُ،
ويولِّيَ الظلام،
ويَصلُحَ الإنسانُ...

* * *

عبد الحميد الداودي*

لا أحفظَ للسر مثل صندوق الصدر؛ فقفل هذا الصندوق العقل، ومفتاحه الإرادة، فإذا ما سقطت الإرادة، سقط العقل معها وصار الصدر مشاعًا للصوص الأسرار وسارقي خزائن الأفكار.

الموازين

التوازن في بناء الإنسان

في فكر الأستاذ فتح الله كولـن

يراهـن الأسـتاذ محمـد فتـح الله كولـن علـى الاسـتثمار الحضـاري فـي أكبـر ثـروة (الإنسـان)، ومـن ثـم لا يمـل مـن التذكيـر بمحورية الفـرد ضمن أي إصلاح منشـود، ويكثر من التفصيل أثناء حديثه عن نوع الإنسـان الذي تناط به مهام التجديد والبناء، خصوصًا وأن عمليات الهدم التي حدثت في تركيا، مست أعماق المجتمع. ومن ثم يؤكد على أن "الشخصية التي يحتاج إليها شعبنا أمس الحاجة، هي شخصية الإنسان المخلص المتحمس المتوازن الذي يحركه الشعور والإدراك والمسؤولية، ويهيمن على تصرفاته وأعماله التفكير في الأيام القادمة

في خططه وبرامجه بقدر التفكير في ضرورات الحاضر.

شخصية مهندس الفكر والروح، المنفتح على الوجود بقلبه، العامر عقله بشعور العلم، المقتدر على تجديد ذاته كرة أخرى في كل آن، المتتبع للنظام في كل وقت، والمصلح لتخريب آخر في كل لحظة".

هذا الإنسان بوصفه الهدف المنشود تتجسد فيه أنوار أسماء الله الحسنى وبخاصة الرقيب والحفيظ والسميع والعليم والخبير، لأنه "بطبعه رباني في كل أحواله، وبكل ذاته وهو في مناسبة دائمة مع الوجود باعتباره خليفة لله. وحركاته وأفعاله كلها مراقبة... فلا يقوم بعمل إلا بحس من يعرضه على التفتيش، حتى يكون الله سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به".

إن الحاجة لهذا الإنسان عظيمة عظم مسؤولية خدمة الرسالة وإنقاذ الإيمان وإحياء الآخرين به، فهو الوحيد الذي تتترّس به الأمة لأنه رائد أهله لا يكذبهم، وطليعة المسير يتعرض للحرائق وهو يواجهها حماية لغيره. تأسيسًا لهذا المعنى وتأكيدًا له يقول محمد فتح الله كولن: "إن تحقق هذه الرسالة الحيوية لن يكون إلا على أيدي ربانيين لا يولون أهمية لأشخاصهم، ولئن اهتموا بأشخاصهم فلا يرون خلاصهم إلا في خلاص الآخرين.

وعندنا -كما هو في حقيقة الإسلام- الخلاص من المسؤولية أمام الله تعالى، مرتبط بالجهد والهمة في البحث عن طرق هذا الخلاص. نحن نرى سلامة مستقبلنا البعيد والقريب في أن نكون ملجأ للأرواح الأخرى، وفي ضخ النور في الإرادات الأخرى، وفي إعلاء القلوب الأخرى إلى الذرى. ونرغب دائمًا إلى إشغال مكان بين الذين يتلقّون الحرائق بصدورهم ويولون للمنافع الذاتية أدبارهم (...) ولن يدرك الخلاص البتة أولئك الذين يديرون ظهورهم للوجود كله وللنظام العام، فيهدرون أعمارهم في ظلمات متاهات الأنانية. ودع عنك إدراكهم الخلاص، فكم تسبب هؤلاء حتى في هلاك الذين أحسنوا الظن بهم (...) فالطريق الوحيد للتحول من الفردية إلى الجماعة، ومن قطرة إلى بحر، وبلوغ الخلود بهذه الوسيلة، هو الفناء بالذوبان في الآخرين والاندماج بهم بالانصهار

يدعو الأستاذ فتح الله كولن إلى إعادة التوازن في داخل الإنسان، لأنه إن لم يستطع العقل "التُّرابي" أن ينقلب إلى عقل "سماوي"، فلا مناص من وقوع أقوى منطق إلى وهدة اللامنطق

حراء

فيهم من أجل إحيائهم والحياة معهم".

أهمية التوازن في بناء الإنسان وصياغة قراراته

تكاد تشكل كلمة التوازن مساحة واسعة ملحوظة من أحاديث "كولن" عن الإنسان، وهي المفتاح إلى شخصية ذات تكوين متوازن، وهي سمة بارزة لمشروع "الخدمة" الذي يعرض من خلال مؤسساتها المتنوعة، ولأجل ذلك نرى "فتح الله" ينبه إلى أن "الحياة الحقيقية هي حياة القلب، والإنسان الذي يحيا بحياة القلب يصبح كيانًا فوق الزمن. ويستطيع دق أبواب الماضي والمستقبل ويراهما وجهين لعملة واحدة يمكن فتحهما. فمثل هذا الإنسان لا يأبه بآلام الماضي ولا بتهديدات المستقبل.

والمحظوظون الذين يكونون تحت إمرة الروح، يتوجهون دومًا للحصول على رضا الله وعلى الفضائل الإنسانية، وبوصلتهم تشير على الدوام نحو المحراب نفسه ونحو الدرب نفسه.

قد يحدث عندهم أحيانًا انحراف ضئيل عن الطريق، ولكن ندم من أعماق النفس، وأنين من أعماق الروح يكفيان لإذابة الآثام المحيطة بالقلب. إذابة هذه الآثام في أرواحهم ثم الاستمرار على الدرب نفسه وعلى الطريق نفسه... هؤلاء المحظوظون الذين يقومون بأداء جميع واجباتهم وفرائضهم حتى أدق تفاصيلها بكل عناية واهتمام، لا ينسون وهم يوفون حق أعمالهم الدنيوية ويقومون بوظائفهم فيها بكل عناية ونظام ودقة... لا ينسون عالمهم الداخلي حيث يسمون ويرتفعون ارتفاع عطر البخور حتى كأنهم يشاركون الملائكة كل يوم بضع مرات في مجالسهم".

التوازن بين العقل والقلب والروح

من أعظم ما ابتلي به الإنسان في هذا العصر، تشيؤه بتغليب ماديته على روحه، بل بإنكار الجانب الروحي

الشـخصية التي يحتاج إليها شـعبنا أمس الحاجة، هي شخصية الإنسان المخلص المتحمس المتوازن الـذي يحركـه الشـعور والإدراك والمسـؤولية، ويهيمن على تصرفاته وأعماله التفكير في الأيام القادمة في خططـه وبرامجه بقـدر التفكير في ضرورات الحاضر.

حراء

في مساحات واسعة في بناء الأفراد والمجتمعات الحديثة. وباءت بسبب ذلك البشرية بهزائم منكرة في كينونتها الإنسانية، ولم يغن عنها ما كسبته في دنيا العقل والمادة -من نقلة نوعية وثورات علمية- شيئًا وحاق بها قدر من الشقاء والتعاسة الخطيرة، يقول عبد الحليم عويس رحمه الله: "لقد قدم العقل ازدهارًا ماديًّا وشيئًا لا ريب فيه، لكنه -مع ذلك- لم يستطع أن يقدم "البديل" عن "الروح"، وكلما ارتفع منسوب عالم الأشياء هبط منسوب الروح وفقد الإنسان كثيرًا من أركان سعادته؛ لقد تقدم عالمه الخارجي، أما عالمه الداخلي فهو يتداعى في كل يوم آيلاً للسقوط دون أن تكون هناك تيارات روحية قادرة على إيقاف الانهيار ومنع السقوط.

إن كل الوسائل الخارجية تفقد فاعليتها ما دام داخل الإنسان متناقضًا، يتآكل روحًا وقلبًا ويعيش تعاسة لا تنفع في علاجها الماديات الخارجية".

وفي سبيل معالجة تلك الاختلالات يدعو الأستاذ فتح الله كولن إلى إعادة التوازن في داخل الإنسان، لأنه إن لم يستطع العقل "التُّرابي" أن ينقلب إلى عقل "سماوي"، فلا مناص من وقوع أقوى منطق إلى وهدة اللامنطق؛ "لقد قاست الإنسانية منذ ظهورها حتى الآن، من صخب النزاع بين العقل والقلب، ولو فشلنا في إقامة جسر بين العقل والقلب ولقاء بينهما، وتأمين التناغم والتلاؤم بينهما، فإن النزاع والخصام سيستمر".

ميلاد جديد يبشر به تزواج العقل والقلب

تمر البشرية بمخاض تنتظر معه مولودًا جديدًا، يجسد لقاء حقيقيًّا بين العقل والقلب، يترتب عنه عالم جديد أبرز تجلياته "الإنسان الجديد" الذي يضع عنه إصر تراكمات المادة التي حاصرت القلب وحشرته في زاوية في انتظار الإجهاز عليه، أو تقييده بالأغلال على الأقل لتنطفئ فاعليته ويغيب نوره. يبشر كولن بهذا الميلاد بقوله: "فمتى استضاءت القلوب وتنورت العقول بالأنوار التي ينشرها الأنبياء، وانكفأت الجسمانية والمادية في زاويتيهما، واستقرت الفيزياء والميتافيزيقية في مكانهما الصحيح، وتقدم العقل السماوي -بتعبير مولانا جلال الدين الرومي- وعقل المعاد -بتعبير الإمام الغزالي- على "عقل المعاش" و"العقل الترابي"؛ فقد تحقق-حينئذ- تزواج جديد بين القلب والعقل، وميلاد جديد، وميلاد خلاص الإنسان من التناقضات".

لقد سعى "كولن" إلى تحقيق هذا التوازن في نفسه وفيمن حوله، وأصر على أن يكون مشروع "الخدمة" -بمؤسساته المتنوعة تعليمية وإعلامية وفنية وغيرها- مثالاً يغري المتأملين ليعجبوا من الزراع حين استوى ما غرسوه على سوقه، يقول فؤاد البنّا: "نجح كولن في إعادة الروح إلى العقل الإسلامي، وتمكن من روحنة العقل وعقلنة الروح، بحيث أعاد طاقتيهما إلى دائرة "التكامل" بعد أن انزلق بها التخلف إلى دائرة "التآكل". ولأن مشاريعنا هي انعكاس لشخصايتنا، فأول ما ظهر هذا الدمج في شخصية كولن نفسه، فقد امتلك عددًا من "الموازين" الدقيقة بين مكوني الفاعلية الفردية والاجتماعية، حيث جمع بين استنارة "المفكر" و"حرارة" الداعية، وجمع بين بصر العقل وبصيرة القلب.

وبهذه المساوقة الدقيقة امتلك هذا الرجل "فكر الإرادة" و"فعل الإدارة"، فكان في كليهما سديدًا ورشيدًا، وكلما ضيق المسافة بين العقل والقلب ازداد ولوجًا إلى عالم الإنسان".

المتوازن رجل إرادة وروح

يمتلك الإنسان المتوازن فن إدارة غرائزه وتوجيه صفاته نحو ترقيته ويحمي نفسه من آثار ما ابتلي به، عندما ينتبه إلى كنزه العظيم الذي يقول عنه كولن: "إن القلب هو مرآة صقيل تتجلى فيها الحقيقة العظمى، فما أثراه من مكتبة! وما أعظمه من سجل! وما أسماه من حافظة! لكن لمن يفهم لغته فحسب". فمن عقل هذه اللغة أوتي

hiramagazine.com

حكمة تحويل صفاته المضرة إلى وسيلة خير كثير لنفسه ولمن حوله، حيث "إن الله تعالى وضع -مثلاً- بعض الصفات المضرة في فطرتك كالغضب والحقد والنفور والشهوة... ولكن إن لم تستطع أي من هذه الصفات المضرة أن تتحكم فيك في أي وقت، بل على العكس من ذلك كنت قادرًا دومًا على التحكم فيها بإرادتك القوية، وعشت رجل إرادة وروح، مؤديًا الفروض والسنن، متبعًا طريق القلب والروح دون أن تتصيدك المظاهر البراقة الجذابة الداعية إلى طريق جهنم، كما استطعت تحمل مصاعب سلوك طريق الجنة، إذا بك ترى نفسك وقد حشرت مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين".

التوازن بين لوثة الرياء ومصيبة الانزواء

ما دخل الرياء في عمل -مهما صغر أو كبر- إلا أفسده، ولقد علمنا كتاب ربنا أن حبوط العمل مصير من أشرك، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(الزمر:٦٥).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه" (رواه مسلم).

وما ينتجه الرياء مهما بدا قائمًا جميلاً، سرعان ما يخبو وينتهي ولا يؤتي ثمارًا طيبة. كما أن من ينزوي عن الناس ويتجنبهم ويتخلى عن واجباته، يصير آثمًا ويحرم نفسه ومن حوله من خيره وصالحات أعماله وحسن مواقفه. يتحدث "كولن" عن الفريقين فيقول: "الذين لم يحسموا الأمر مع أنفسهم ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة، ولم يرغموا أنف الرياء ولم يسحقوا روح الافتخار ولم يجعلوه تحت أقدامهم، ولم يقلعوا من أرواحهم الكبر على الآخرين و التظاهر أمامهم... فأعمالهم لا تنفع شيئًا سوى كونها مصدرًا لإحداث القلاقل والاضطرابات.

ومن جهة أخرى فالذين ينسحبون من الميدان ويقبعون في زاويتهم، آخذين نصيبهم من الجهاد من جهته المعنوية وحدها ويقولون: لا يصح الانشغال

لقد سعى "كولن" إلى تحقيق التوازن في نفسه وفيمن حوله، وأصر على أن يكون مشروع "الخدمة" بمؤسساته المتنوعة تعليمية وإعلامية وفنية وغيرها، مثالاً يغري المتأملين ليعجبوا من الزراع حين استوى ما غرسوه على سوقه.

حراء

مع الغير قبل جهاد النفس، فهؤلاء الذين يرون إحراز درجات معنوية لأنفسهم وبلوغ المراتب الرفيعة التي يرونها فوق كل أمر ويعزفون عن إرشاد الناس، هم بلا شك على خطإ واضح، حيث يخلطون الإسلام بالروحانية الصوفية... فما أسعد أولئك الذين يبحثون عن وسائل لإنقاذ غيرهم مثلما يبحثون عنها لإنقاذ أنفسهم، وما أسعد الذين لا ينسون أنفسهم في خضم العمل لإنقاذ غيرهم". ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

المراجع

(١) ونحن نقيم صرح الروح، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١١.

(٢) الموازين أو أضواء على الطريق، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٢.

(٣) فتح الله كولن رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة، لعبد الحليم عويس، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣.

(٤) ترانيم روح وأشجان قلب، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

(٥) ونحن نبني حضارتنا، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١١.

(٦) عبقرية كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، لفؤاد البنا، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣.

(٧) نحو عقيدة صحيحة، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، وعبد الله محمد عنتر، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٤.

(٨) النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٢.

(٩) روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٢.

hiramagazine.com

محمد هاشم البشير*

العلم الحديث
أزمة معرفة أم أزمة قيم؟

في الوقت الذي يُشيّد فيه قرننا هذا صرحًا رهيبًا من المعارف والعلوم الطبيعية في مجالات الفيزياء والكيمياء وعلوم الحياة والتكنولوجيا والفضاء الخارجي، يغوص –وبشكل مذهل– في أزمة أسس وأزمة أخلاق وأزمة قيم وأزمة معنى. لقد بدأت هذه الأزمات عندما غابت الأهداف السامية وتأزمت الفلسفات واصدمت الأخلاق والمعارف والقيم بحائط "النسبية"، فأضفى العلم مع مطلع القرن العشرين النسبية على كل المعارف، فأصبح هنالك تقويض معمم لكل ما هو ثابت سواء في المعارف أو الأخلاق معًا. فأصبحت وكأن الأخلاق تدور في نسق ثابت لا يتماشى مع هذا التطور العلمي والتقني المتسارع.

تطور واضمحلال

حين وضع العالم "غوردون مور" قانونه الشهير (Moore's law) عام ١٩٦٥م، والذي تنبأ فيه بالتطور المتسارع في مجال معالجات الحاسوب، لاحظ "مور" أن زيادة عدد الترانزستورات على شريحة المعالج بدون تكلفة يتضاعف تقريبًا كل عامين، مما يترتب عليه تطور متسارع في مجال نقل المعلومات ومعالجتها. صحيح أن هذا القانون أثبت صحته وقدم خدمات جليلة للبشرية فتطورت الحواسيب وأصبحنا في عصر الانفجار المعلوماتي، إلا أنه كان في الجانب المقابل تحدّ كبير في جانب القيم والأخلاق. فقد كان هذا التسارع بحاجة إلى ثبات ومتانة في الأسس الأخلاقية والأسس الفلسفية، فاضمحلت الأخلاق والقيم في ظل الانفجار المعلوماتي.

أزمة الأسس المعرفية

إن المعرفة اليوم وبشكلها الحالي، ليس لها إلا قيمة واحدة ألا وهي البحث عن المعرفة من أجل المعرفة حتى أصبحنا اليوم لا نعرف حدودها. فالتجريب في البشرية أصبح ممكن، وتمدد استعمال الطاقة النووية والتبادل الوراثي حدودًا لا يمكن أن يدركها إلا العقل الأخلاقي.

فعندما كان الهدف من العلم هو المعرفة فقط، انحل الجوهر المميز للواقع وللإنسان، وذهب بكل النظام الكوني البديع والمنظم إلى دهاليز من نوع غامض ولغزي. فبدا الكون أخيرًا كما لو كان ثمرة انشطار خارق ومثير صيرورته وحيدة الاتجاه. كل ذلك نابع من التغييرات الجذرية في مفهوم العقل الذي بدأ مع بداية النهضة الغربية، والتي تأسست على إنجازات المسلمين بغير ما كان عليه العقل عند المسلمين. فقد تم في المعرفة الغربية اختزال وظيفة العقل على التعرف على الحقائق الكلية والجزئية، وتوجيه الفعل انطلاقًا من المعرفة فقط، وإدراك الظواهر الحسية فحسب، وتوجيه الفعل انطلاقًا من الخبرة التجريبية. ولكن إعادة تركيب بناء العقل هذه كانت بعيدة عن الغيب وعن الثقة بـ"الوحي"، وهو ما أدى آليًا إلى انحصار المعرفة بـ"الحس"،

عندما كان الهدف من العلم هو المعرفة فقط، انحل الجوهر المميز للواقع وللإنسان، وذهب بكل النظام الكوني البديع والمنظم إلى دهاليز من نوع غامض ولغزي، فبدا الكون أخيرًا كما لو كان ثمرة انشطار خارق ومثير صيرورته وحيدة الاتجاه.

فأصبحت هنالك أزمة أسس في المعرفة العلمية.

فالمعرفة الغربية ظلت تعاني من أزمة الأسس المعرفية أهمها ترنح فكرة الحقيقة، فأضحت المعرفة الغربية تستنفد طاقتها في الركض حول أسس جديدة تبعد العلم عن الدين والأخلاق، فأصبحت رقعة المجهول تتزايد بنسبة أكبر من تزايد المعلوم، وذلك بسبب استحالة تفسير الواقع كليًا اعتمادًا على التفسير المادي. فالأسس التي صاغت المعرفة الغربية عبر مفهومها الجديد للعقل وبالتالي أسس فكرها، قد صيغت من داخل النسق الثقافي الغربي ذاته، ومن داخل الحركة التاريخية التي مرّ بها، فهو متأثر إلى حد بعيد بالمسألة الدينية، كما تجلت لديه في دور الكنيسة السياسي ومحاربتها للعلم، بحيث أصبح لازمًا -لكي تتحرر المعرفة- أن تستبعد سلطة الدين، وهي سلطة تأسست على ركيزة ادعاء امتلاكها للحقيقة "الكلية" التي تنتهي إليها المعارف الجزئية، هذا فيما كانت المعرفة في الحضارة الإسلامية على علاقة حميمة مع الدين، بل إنها انطلقت بتأثيره.

مشكلة العلم الحديث

إن مشكلة العلم الحديث كما يرى "إدغار موران"، أنها تطرح كموضوع للتفكير الفلسفي، تطرح أكثر من أي وقت مضى، ذلك أن العلم بما هو كذلك، إشكالي. فالعلم عند "إدغار موران" سلطة معقدة، وشكل متميز وراق من العقلانية، لكنه لا يدمج الذات المفكرة، إنه يجهل الملاحظ-المشيد للمفاهيم. لقد حاول "هوسرل جادا" تبيان كيف أن "أزمة العلوم الأوربية" تعبر بعمق عن أزمة احتجاب الذات المنتجة للعمل. إن العودة التأملية إلى وضعية العلم، تمكن وحدها -في نظره- من

hiramagazine.com

تبيان الأزمة التي تتمظهر كذلك في المجال السياسي. تتمثل الفكرة الأساسية عند هوسرل في عدم اكتراث العلماء أثناء مسعاهم العلمي بذاتيتهم الخاصة وتأثيرها على عملهم. بعبارة أخرى، إن من ننعتهم بـ"العلماء"، يفرغون العلم من فاعليه الحقيقيين ومن سياقه الإنساني.

إن السؤال الذي ينبغي علينا طرحه باستمرار على موضوع الحقيقة العلمية هو: هل تنفلت القوانين والاكتشافات والموضوعية التي يضمنها العلم، من الشروط التاريخية والاجتماعية والسيكولوجية الماثلة زمن ظهورها، أم أنها تظل سجينة تلك الشروط؟

الحاجة إلى مرجعية

في الوقت الذي أصبحت المرجعية العليا للمعرفة هي المادة، جرى النظر للإنسان بوصفه مادة متطورة في أرقى صورها، وكم هي بشعة تلك النتيجة المنطقية لمرجعية المادة أن يصبح الإنسان برغم تمايزه عن أشكال المادة أن يُردّ إليها، وتجري معرفته ودراسته على النحو الذي تجري فيه دراسة مواد أخرى كالطين والرماد والبخار. وهكذا شهدت المعرفة الغربية في العلوم الإنسانية مطلع القرن الماضي، سعيًا محمومًا لتطبيق المنهج التجريبي في حقولها، وهو ما أدى إلى معرفة مبتورة للإنسان، هذا في الوقت الذي فشلت فيه بتحقيق ذلك، فهي بهذه العملية -أعني رد الإنسان إلى الطبيعة- تقوم باختزاله وإساءة فهمه.

مرجعية المادة حولت المنفعة واللذة إلى أهداف أساسية للوجود الإنساني، وهو ما يجعل النزعة الاستهلاكية سلوكًا "حتميًا"، يجعل عجلة الاقتصاد تتسارع نحو مبدأ "مزيد من السلع فيه مزيد من المنفعة واللذة" كما يقول المسيري. وهو أمر يقضي بتحول الحاجة من أن تكون سببًا للاختراع إلى أن يكون الاختراع هو مولد الحاجة. ليس غريبًا بعد ذلك أن يشعر المرء في العالم الغربي بتشظي أفراد المجتمع وتفكك بنائه، فالروابط الأخلاقية والقيمية باتت محكومة بفردانية مزمنة. وما بين فقدان النهايات الكلية (العلة الأولى للوجود) للمعرفة المادية وانغلاقها على المادة، وبين قيمها المفرطة في استهلاكيتها وفردانيتها دون هدف سوى اللذة ذاتها والشعور الشخصي بتحققها، وجد الإنسان الغربي نفسه قد تفكك معنويًا وأمام معضلة عويصة هي ما عرف بـ"أزمة المعنى".

الإسلام هو ما يحتاجة العلم الحديث اليوم

وفيما أصبحت المعرفة الغربية مسدودة الأفق، فقد كانت إمكاناتها في المعرفة الإسلامية مفتوحة. وإذا كانت المعرفة الغربية قد تأسست على موقف من "الدين" والمعرفة الدينية، فإن المعرفة في الحضارة الإسلامية قامت على مصالحة وتسوية معها تجعل كل المقولات بين العلم والدين المنقولة من السياق الغربي وتاريخه الديني، أمرًا لا معنى له في سياق الحضارة الإسلامية.

فخسارة النموذج المعرفي الغربي لا تتوقف على المعرفة بحد ذاتها وحسب، بل إنها تمس المنظومة القيمية في عمقها، حيث يمكن القول إن فقدان المعنى والسمة العنصرية والإمبريالية والاستهلاكية ودوامة اللذة المفرغة، أمر كان يمكن تجنبه في إطار النموذج المعرفي الإسلامي. فقد أصبح بمقدورنا اليوم أن نقول بثقة، بأن الخسارة التي وقعت فيها المعرفة الغربية وأدت إلى أزمتها الراهنة، يمكنها أن تعوضها بالاستعانة بالنموذج الإسلامي لها، وهي استعانة لا تعني استعادة المعرفة القديمة وإنما نموذجها.

ينبغي إذن، العمل على وصل العلم والدين معًا، لأن انحلال إحداهما يكون في غياب تلاحم بعضهما البعض. فإن الإنسان اليوم، لا ينبغي له أن يتغذى فقط بالعلوم، بل يجب أن يتغذى بالدين والعلم معًا. وهذا ما يدفعنا نحو التفكير في المصير الإنساني والغاية من خلقه وهي عبادة الله وعمارة الأرض بما أمر الله به.

هناك إذن في إحالة راهنة، لن نعبرها بالعلم وحده ولن نعبرها بالدين وحده، وعندما يتكامل الاثنان معًا، عندئذ يكون بوسع الدين والعلم الظهور كوجهين متكاملين لعملة واحدة وهي الحياة. ■

(*) رئيس جمعية الفزياء بجامعة وادي النيل / السودان.

hiramagazine.com

د. عبد الإله بن مصباح*

لا تودع سرَّك إلا عند حكيم أو رجل مشهود له بالعقل، وإياك والحمقى وضعاف العقول، فقد يفشون أسرارك وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

الموازين

حين تعود الصحراء خضراء

جاء في معرض تحليل الأستاذ فتح الله كولن لجوانب أعماق النبوة من خلال قراءته لمسار العلوم ومنجزاتها: "إن العلوم المعاصرة اليوم قد تكتشف -من منظور كلي وبتقويم شمولي- أمورًا مهمة تتعلق بالنظام والانسجام والحركة في الوجود والحوادث، ونحن نتقبل ذلك بالتقدير والتوقير. لكن جمعًا من المجهّزين بجهاز خاص، قد أعلنوا في أقدم العصور وبواكير الزمان -ولو بشكل إجمالي- هذه المعلومات والتفسيرات التي توصل إليها العصر باستخدام أعظم التكنولوجيات"[1].

فهل العالم اليوم مؤهل لفهم حقيقة النبوة؟

لا شك أن النبوة هي إخبار عن وحي لشمولية الواقع والعقل والغيب وفق منظور مجرد عن أبعاد الزمان والمكان. ونبوة سيدنا محمد ﷺ فاقت كل النبوات بمعجزة القرآن الخالدة، وبما تضمنته أحاديثه الشريفة التي استوعبت ببيانها المعجز لبَّ مدركات العقل المتجددة، بحيث إن هذه النبوة الخاتمة لم تضاهيها رسالة سابقة في ذروة التحدي لفكر الإنسان باستيعاب لب نتاجاته العقلية والسبق إلى الإشارة إليها بأوجز الأساليب والعبارات الإعجازية. وذلك هو السر في عدم ورود أي مجال للتعارض بين ما جاءت به تعاليمها، وما يفرزه الزمان من جديد الحقائق العلمية. ولعل في وقوفنا على الدلالات الإعجازية لحديثه ﷺ عن عودة أرض العرب مروجًا وأنهارًا -وهي اليوم

أشـارت الأبحـاث الجيولوجية أن التحرك المسـتمر لصفيحة شـبه الجزيرة العربيـة -ونحن نعرف في الجيولوجيا أن سطح الأرض ليس قطعة واحدة ولكن مجموعة قطع متجاورات ومتحركة تسـمى صفائح تكتونية- سيؤدي إلى تغيير البيئات الطبيعية في منطقة الخليج.

حراء

صحـراء قفـار- مـا يفيد هـذه المعاني. فهـذه العودة التي أخبر بها رسـول الله ﷺ قبل خمسـة عشر قرنًا، نرى اليوم أشـراطها تظهـر في مجمـل التقارير العلميـة الحديثة من خـلال ما تكشـف عنـه الدراسـات الأكاديميـة والبحوث الميدانية لمختلف التخصصات العلمية.

قـال رسـول الله ﷺ: "لا تقـوم السـاعة حتـى يكثـر المـال ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا" (رواه مسلم).

مـن خلال قراءتنـا العلمية للتطورات البيئية للأرض، نجـد أن البيئـات الطبيعيـة شـكلت فـي مختلـف الحقب المتسلسـلة لتاريخ الأرض، مجالات متميزة عن بعضها بأنـواع الرواسـب وأصناف الحياة اللتين شـكلتا عند كل فتـرة خصوصيـات البيئة الطبيعية المحـددة بنوعية الهواء والمـاء والتربـة والكائنـات الحيـة. فهـي إذن وحـدات طبيعيـة ناتجـة عـن تفاعـلات معقـدة بيـن عناصـر حيوية (الكائنـات الحيـة) وغيـر حيويـة (الهـواء، المـاء ومعـادن التربـة)، أدت فـي فتـرات التطـور اللارجعـي لـلأرض، إلـى ظهـور مجالات للترسـب والحيـاة متميـزة كل منها بخصوصياتها المحددة بظرفية زمانها ونوعية مكانها.

فمن خلال تصفحي لنتائج البحث الذي قام به عالم الرواسـب الفرنسي "Purser" في مجال دراسته للتطورات الجيولوجيـة والرسـوبية لمنطقـة الخليج المحاذية لشـبه الجزيرة العربية، وجدته يستنتج أن بحر الخليج كان قبل عشرين ألف سنة أرضًا يابسة، بحيث كتب في نتائج بحثه "إن قعـر الخليـج يحفظ آثار شـبكة أودية تدل تشـعباتها على أن الخليج كان في هذه الحقبة أرضًا يابسة تخترقها أنهـار كثيـرة كانت تصب مباشـرة في المحيـط الهندي".

وفي هذا إشـارة إلى أن مياه الأنهار كانت تجري بشـكل وافر فوق أرض الخليج الذي كان جزءًا يابسًا من الجزيرة العربية قبل أن تغمره مياه المحيط وتكوّن بحر الخليج.

ثـم وجدتـه يقـول بخصـوص مصيـر منطقـة الخليج في المسـتقبل: "إن الانخفاض التدريجي لمنسـوب مياه الخليـج وتقلـص مجالـه البحـري الناجميـن عـن امتلاء حوض الخليج بالرواسب، سيؤدي مستقبلاً إلى انغلاقه مـع ظهـور مناطـق مـروج علـى طـول الخـط المحوري للخليج". وهو ما يحمل الإشـارة إلى عودة المنطقة إلى الظروف القارية التي كانت عليها من ذي قبل، مـع تكون المروج التي هي مناطق التقاء مياه عذبة تسـوقها الأنهار مـع مياه مالحة تأتي بها البحار.

هـذه النتائـج التي اسـتخلصها هذا العالـم من أبحاثه الميدانية لمنطقة الخليج، أظهرت تفاصيلها الجيولوجية أن التحـرك المسـتمر لصفيحـة شـبه الجزيـرة العربيـة -ونحـن نعـرف فـي الجيولوجيا أن سـطح الأرض ليس قطعة واحدة ولكن مجموعة قطـع متجاورات ومتحركة تسمى صفائح تكتونية- يؤدي إلى تغيير البيئات الطبيعية للمنطقة. ويقترن ذلك بانفتاح البحر الأحمر على حساب انغلاق الخليج، بحيث اكتشـف الباحث مجموعة أودية فـي عمق ١٢٠م بخليج عُمان بينت تحليلاتها الرسـوبية أن الخليج كان قبل ما يناهز عشرين ألف سنة عبارة عن أرض يابسـة تخترقها أنهار ووديان كانت تصب مباشـرة فـي المحيـط الهنـدي. لكـن بعـد ذوبـان ثلـوج الحقبـة الجليديـة الأخيـرة، حـدث طغيان لميـاه المحيط الهندي الذي غمر المنطقة في وقت وجيز قدر فيه اجتياح المياه لليابسـة بمعـدل ١٠٠ إلـى ١٢٠م في السـنة. فتكوّن بحر الخليـج وانفرد بعد انعزاله عن المحيط بشـكله الخاص وخصائصه التي تختلف اليوم كثيرًا عن خصائص سـلفه المحيط الهندي.

أمـا الترسـبات التـي يتلقاهـا الخليـج، فبالإضافة إلى تلك الناتجة عن تعرية جبال زاجروس الإيرانية والهضاب الشـرقية للجزيرة العربية، هناك كميات هامة تنجرف من الشـمال عبـر نهـري دجلـة والفـرات اللذيـن يلتقيان عند المصـب فـي شـكل دلتـا تتكدس فيها الرواسـب بشـكل

hiramagazine.com

فائق، حيث يُحتمل حسب نفس الدراسة أن يسجل الخليج امتلاء تدريجيًّا بالرواسب، وانخفاضًا موازيًا لمستوى مياهه التي ستسيح على أرض الجزيرة. فتظهر في بحر الخليج أراضي يابسة، وعلى أرض الجزيرة مروج وأنهار تذكر بالحالة التي كانت عليها المنطقة قبل الحقبة الجليدية الأخيرة.

هذه الظروف التي سادت قبل الحقبة الجليدية الأخيرة، تبدو أشراطها ملوّحة في هذا الزمان نظرًا لما أصبح يسجل من ارتفاع متزايد لحرارة الأرض. الشيء الذي يزيد من وتيرة ذوبان الثلوج المتواجدة على القطبين الشمالي والجنوبي، وعلى قمم الجبال والمرتفعات، ويقلص المجال الجليدي العام على سطح الأرض، مساهمًا بذلك في رفع مستوى مياه البحار والمحيطات، ومنذرًا بطغيان عام للبحر الذي قد يغمر مناطق كثيرة منخفضة من سطح اليابسة بما في ذلك الهضاب الشاطئية لشبه الجزيرة العربية.

لكن الشيء الأكثر إثارة في هذا التصاعد المستمر لحرارة الأرض، هو التزايد المهول للإفرازات الغازية في الجو، وخاصة ثنائي أكسيد الكربون الذي يؤجج ظاهرة الاحتباس الحراري. فهذا الغاز سيتكاثف في الجو ويتركز بصفة فائقة في المناطق الأكثر إصدارًا له وهي الصحاري، لأن المناطق الثلجية وخاصة القطبية التي كان من المفروض أن تجذب هذا الزائد من غاز الكربون وتمتصه، لم تعد قادرة على ذلك نظرًا لذوبان ثلوجها التي تلعب دور المصاصات لهذا الغاز. مما سيؤدي إلى تكتل غاز الكربون في المناطق الصحراوية -وصحراء الجزيرة العربية إحدى هذه المناطق- مشكلاً بذلك كتلاً سحابية من شأنها أن تعطي أمطارًا تحول الصحراء إلى مناطق رطبة خضراء.

بالموازاة مع ذلك سيؤدي الارتفاع العام لمستوى البحار في العالم، إلى اجتياح المياه المالحة البحرية للمجال القاري، مكونة بذلك مناطق مروج عند التقائها مع المياه العذبة الآتية من الأنهار. الشيء الذي من شأنه أن يُظهر على أرض الجزيرة العربية، بعد أن يمتلئ الخليج بالرواسب وتسيح مياهه على الهضاب العربية،

استنتج بعض علماء الرواسب بأن الانخفاض التدريجي لمنسوب مياه الخليج وتقلص مجاله البحري الناجمين عن امتلاء حوض الخليج بالرواسب، سيؤدي مستقبلاً إلى انغلاقه مع ظهور مناطق مروج على طول الخط المحوري للخليج في شبه الجزيرة العربية.

بيئات مروجية تتلاقى فيها المياه المالحة المندفعة من المحيط الهندي مع المياه العذبة الآتية من أنهار الشمال. وها هي أرض العرب تعود مروجًا وأنهارًا كما كانت في فترة غابرة من تاريخها، تمامًا كما أخبر بذلك حديث رسول الله ﷺ، ذلك الحديث الذي تؤكد مضامينه اليوم الدراسات والبحوث العلمية لأخصائيين من ميادين مختلفة.

ومن هنا نلمس مدى القدرة الخارقة للحديث الشريف في الهيمنة على لب المدركات العقلية، واستيعابه لمجمل قضايا البحث العلمي في مجال التطورات البيئية بأسلوب آية في الإيجاز وغاية في الإعجاز. بحيث نجد الحديث في منطوقه ركز على ثلاث كلمات جامعة: كلمة "تعود" التي مصدرها العودة، وكلمة "مروج" التي هي من فعل مرَج، وكلمة "أنهار".

فالعودة تعني أن أرض العرب -وهي الجزيرة العربية- كانت في فترة سابقة من ماضيها الطبيعي مروجًا وأنهارًا، وأنها راجعة إلى هذا الوضع في تحولاتها المستقبلية. وهو ما أثبتته دراسات عالم الرواسب الفرنسي "Purser" لمنطقة الخليج كما رأينا، وتؤكده دراسات متخصصة أخرى، بحيث كتب المهندس جمال عبد المنعم الكومي استنادًا إلى أبحاث الجيولوجي الأمريكي "هال ماكلور" في رسالة دكتوراه عن الربع الخالي[٢]؛ أن البحيرات كانت تغطي هذه المنطقة الصحراوية خلال العصور الجليدية التي كانت بالنسبة للجزيرة العربية عصورًا مطيرة، وأنها ظهرت مرتين الأولى قبل ٣٧٠٠٠ إلى ١٧٠٠٠ سنة، والثانية ما بين ١٠٠٠٠ و٥٠٠٠ سنة خلت. كما ذكر الكاتب في

hiramagazine.com

قال بعض علماء الجيولوجيا إن الارتفاع العام لمستوى البحار في العالم، سيؤدي إلى اجتياح المياه المالحة البحرية للمجال القاري، مكونة بذلك مناطق مروج عند التقائها مع المياه العذبة الآتية من الأنهار.

حراء

نفس البحث إشارات إلى صور جوية أظهرت تفاصيلها عن وجود مجرى لنهر عملاق قديم كان يخترق شبه الجزيرة العربية من الغرب إلى الشرق بقيت آثاره تحت الكثبان الرملية الهائلة، حيث كان يشكل دلتا في مصبه عند شمال غرب الكويت. وهذه الحالة ساهمت في تلك الفترة الغابرة من تاريخ الجزيرة في ترطيب جوها وتخصيب أراضيها، حيث أظهرت البقايا المتحجرة آثار نباتات دلت دراستها على امتداد المناطق الخضراء وازدهار العشب ووفرة الوحيش.

أما كلمة "مروج" التي هي جمع "مرْجة" فتعني في الاصطلاح العلمي المعاصر؛ منطقة التقاء مياه مالحة بحرية مع مياه عذبة برية، وهو نفس المعنى الذي نجده في الاصطلاح القرآني. إلا أن صيغة الجمع التي جاء بها منطوق الحديث "مروجًا"، تدل على الكثرة التي تفيد أهمية الظاهرة -ظاهرة المرْج- التي تحمل في طيها إشارة إلى مدى البعد الذي سيعرفه المد البحري في المجال البري.

وأخيرًا كلمة "أنهار" التي تفيد من جهة الاصطلاح اللغوي؛ وفرة المياه الجارية، ومن جهة الخصائص الطبيعية، سيادة الظروف الرطبة ووفرة الخصب والخضرة.

لكن اللافت للنظر في سياق الحديث، تقديمه لظاهرة المرْج "مروجًا" على وقع الأنهار، فالمرج هو ظاهرة تحدث عند التقاء مياه مختلفة الخصائص وتداخلها فيما بينها. وقد يكون هذا التداخل بين مياه البحار المختلفة، كما يمكن أن يكون عند مناطق التقاء مياه مالحة بحرية مع مياه عذبة برية على خطوط التماس الفاصلة بين البر والبحر. هنالك تندفع المياه البحرية لتجتاح الأراضي المنبسطة والمنخفضة من البر فتمرج مع المياه العذبة الآتية من الأنهار. الشيء الذي ينجم عنه تراكب للمياه في طبقات تعلو فيها المياه العذبة نظرًا لضعف كثافتها فوق المياه المالحة. فلا تذوب خصائص أي من هذه المياه في بعضها رغم التداخل الحاصل بينها -كما عاينا ذلك ميدانيًّا في دراستنا لإحدى المروج الشاطئية بالمغرب- بل تتنضد (stratification) في شكل فرشات مائية متراكبة فوق بعضها، ومائلة في تناقص تدريجي للملوحة باتجاه الطرف النهري للمرجة. بحيث تنحدر الطبقات المائية الأكثر ملوحة المتاخمة للممر البحري إلى عمق المرجة نظرًا لكثافتها المرتفعة، بينما تعلو الطبقات المائية الأقل ملوحة المتواجدة إلى الطرف النهري للمرجة فوق الكتل المائية المالحة نظرًا لضعف كثافتها، فينجم عن هذا الوضع جريان للمياه يجعل الطبقات المائية العليا تساق في اتجاه البحر، بينما تتحرك المياه السفلى الأكثر ملوحة نحو وسط المرجة.

وهكذا تظل هذه الكتل المائية رغم تداخلها غير متساوية في خصائصها، محتفظة كل منها بدرجة ملوحة متميزة، لا تبغي إحداها على الأخرى مهما تغيرت حركات المد والجزر من الجهة البحرية أو سيول الأنهار من الجهة البرية، تمامًا كما وردت الإشارة إلى ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾(الفرقان:٥٣).

وهكذا نجد أن ما جاء به الحديث الشريف في موضوع عودة أرض العرب مروجًا وأنهارًا، يحمل من الدلالات العلمية ما لا يمكن فك رموزه إلا بحس علمي عميق، جامع بين دراسات من شتى التخصصات الجيولوجية والمناخية والبيئية، وغيرها من المدركات العلمية التي مكنت من توضيح الرؤيا حول مفهوم الحديث في إثبات حقيقة التطور الطبيعي لبيئات الأرض، ذلك التطور الذي كما أظهرته صيغة الحديث، يجري في سياق التحولات العامة التي يشهدها سطح الأرض، وهي التحولات التي تُجمع عليها التقارير العلمية لمختلف الدراسات والأبحاث الأكاديمية. وهنا تظهر قدرة النبوة الخارقة على استيعاب المدركات

hiramagazine.com

العلمية المتجددة، ذلك أن ما وصل إلى إدراكه العلم الحديث بعد قرون من التراكمات المعرفية وعشرات السنين من الأبحاث العلمية بخصوص ظاهرة الاحترار وارتفاع مستوى البحار، ها هو الحديث الشريف يختزله بإعجاز وإيجاز في كلمة "مروج" التي تحمل في طيها إشارة ضمنية إلى ظاهرة الطغيان البحري الناجم عن ارتفاع مستوى البحر، إذ هو المسبب لتكوّن المروج على سطح اليابسة.

فكأن الحديث بذكره للمروج يكون حمل الإشارة إلى ظاهرة الاحترار، لأن كوْنه قرَن قيام الساعة بتكوّن المروج على أرض العرب يعني حسب الاستقراء العلمي، أنه جعلها رهينة باحترار الأرض. فهذا الاحترار هو الذي يؤدي إلى ذوبان الثلوج وبالتالي إلى ارتفاع مستوى البحار. فإذا تجاوز هذا المستوى حدًّا معيّنًا، ساحت المياه البحرية المالحة على الأراضي المنبسطة فتكوّنت المروج.

وهذا هو بيت القصيد وموضوع الساعة الذي له تُعقد المؤتمرات العالمية، وتصاغ التقارير الإنذارية في محاولات جاهدة لاحتوائه قبل أن يصل الأمر ذروته. فالاحترار أصبح يشكل أكبر خطر يهدد الأرض، والحد منه بات يشكل أكبر هاجس يؤرق الإنسان. ومن هنا أعود من حيث ابتدأت إلى السؤال المطروح، تاركًا الإجابة عنه للقارئ من خلال ما تفرزه مدركات عصره من تجليات علمية شاهدة على صدق النبوة. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

الهوامش

(١) ونحن نبني حضارتنا، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣، ص:١٣٥.

(٢) مجلة الإعجاز العلمي، جدة، عدد ٦، محرم ١٤٣١، ص:٣٢-٣٩.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

قلم الإيمان

على المكتب قلم،
وتحتَ ناظريكِ ورق أبيض..
هيا اشْرعي، وبالقلم أمسكي،
واستنهضي عزيمتكِ،
ومخاضَ الفكر خوضي،
ومع أفكاركِ حلِّقي،
وفي سماء الإيمان تألَّقي..
لا تتكاسلي! فالوقت يمضي،
فإذا أَزَّ القلم أزيزه،
وسُمِعَ على الورق صريفُهُ،
فالمبتغى وصلتِ،
وآمالَكِ حصلتِ...

* * *

د. سعاد دوفاني*

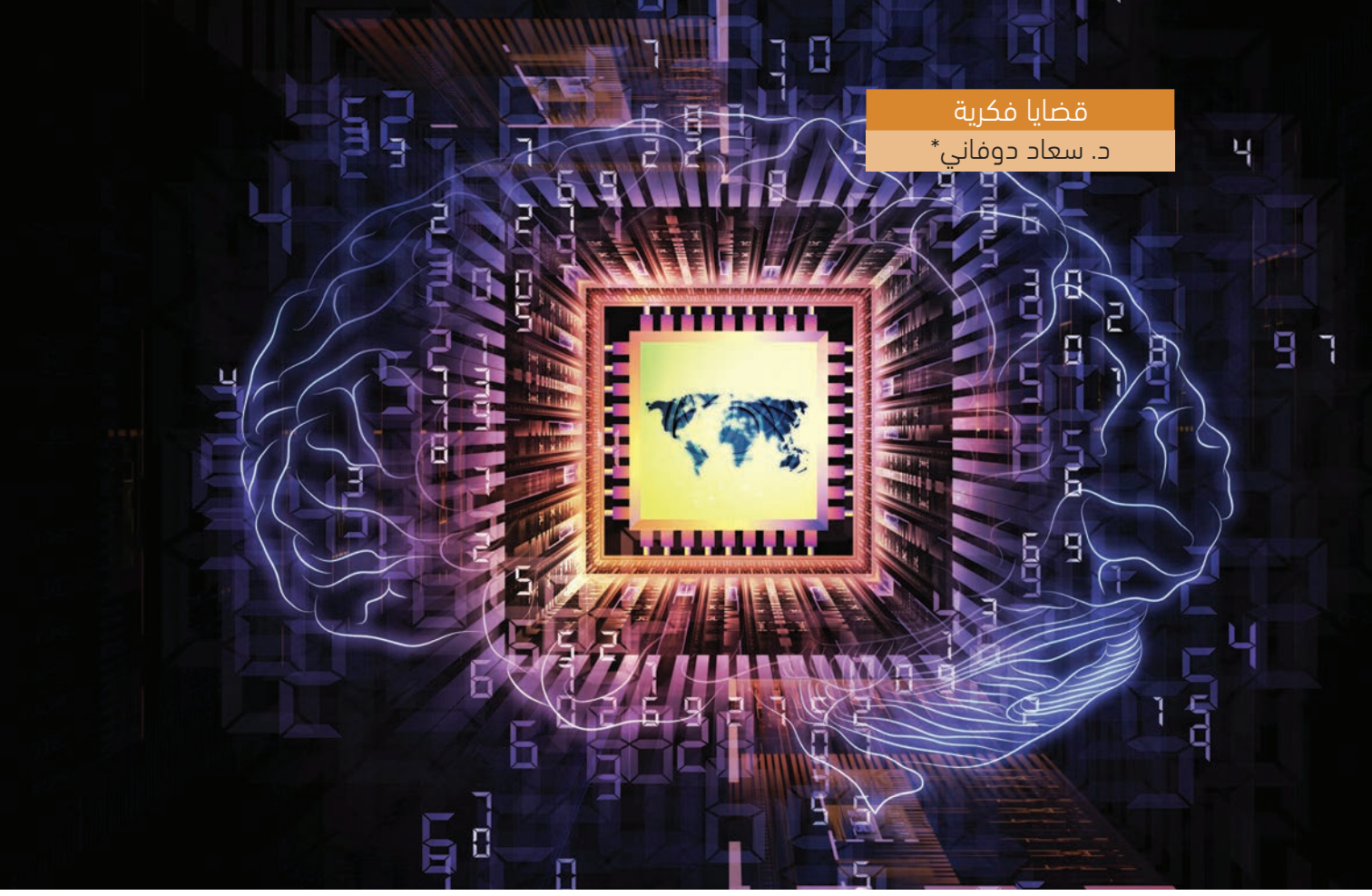

تجديد الفكر أم فكر التجديد؟

لو تأملنا حال الأمة الإسلامية اليوم وما يستصحبها منذ قرون، لألفينا أن واقعًا من الغربة عن الذات أضحى عنوان وجودها، واستقر في الأذهان أنه ثابت لا تغيّر لسيرورته، بل سيطرت على عامة الأمة جبرية ساهمت في تكريس الواقع واعتبار جهود الإصلاح ضربًا من العبثية المضيّعة للجهود والوقت. وقد يعتبر البعض أن غياب مشروع حضاري يكون دليلاً للأمة للنهوض والانبعاث، أو غياب الآليات والأدوات -الكفيلة بتطبيق البرامج الإصلاحية القائمة هنا وهناك- هو أحد أسباب هذا الواقع.

فهل الإشكال في غياب المشروع الحضاري؟ أو في عدم القدرة على تطبيقه؟ أم أنه في التشخيص الخاطئ و تبنّي الحلول الجزئية؟ أو في اللجوء إلى المهدّئات الموضوعية التي طال بها غياب الأمة عن ساحة الإسهام الحضاري؟

يرى الدكتور "عبد الكريم بكّار" أن طرح إشكال المشروع الحضاري سفسطة فكرية، إذ يقول: "حيث أرى المطالبة ببلورة مشروع حضاري لا تعدو أن تكون سفسطة كلامية"[1]، لأن المشروع الحضاري باعتباره منظومة تشريعية قيمية وما تحويه من أصول ومبادئ كبرى تحكم الحياة بمجالاتها المتنوعة، متوافر في الإسلام عقيدة وشريعة، وهو أساس ومرجعية الحضارة الإسلامية. والدليل أنه رغم أفول هذه الأخيرة، إلا أن أسس ومرجعية قيامها بقي موجودًا وما يزال، ومنه فالإشكال المطروح يكون في البحث الجاد بعيدًا عن هذا المشروع.

كما يرى "فتح الله كولن" أن الانبعاث الحضاري[2] قديم قدم الزمن، ومعالم المستقبل رُسمت منذ ١٥ قرنًا، والمسلمون اليوم بحاجة إلى الرجوع إلى نقطة البدء. حين تمازج الوحي وتعاليمه بالنفوس التائهة في صحراء شبه الجزيرة العربية، فتحقق لها الإحياء، وخرج إلى الدنيا جيل محمدي ملأ الأرجاء نورًا وهدى.

ومنه فنحن بحاجة إلى "التجديد"، ولن نتيه في مفهوم هذا المصطلح الذي يزعم البعض أنه جديد ومنشؤه ملازم للعلمانية والحداثة، إلا أن المصطلح قديم وقد استعمله رسول الله ﷺ في قوله: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يجدد لها دينها"؛ والمراد هو التجديد بمعنى الإحياء، وكذلك الإصلاح الشامل بوصفه ضرورة ملحة يتطلبها الواقع الذي يعيشه المسلمون، فهل تحتاج الأمة إلى تجديد فكرها أو إلى فقه التجديد؟ في الحقيقة تحتاج الأمة إلى الأمرين معًا؛ فبتجديد الفكر يتكون الشخص الذي يكرس حياته في سبيل أهداف سامية أعلاها الفوز برضوان الله، ثم تحقيق إنسانيته التي تتم له بقدر ما يعيشه من ترقٍّ في كمالات العبودية لله، وممارسة خلافته في الأرض بتعميرها ونشر قيم الخير والصلاح فيها. وتجديد الفكر الذي هو استجابة للتحدي، يوصل إلى كسر جدار العجز الذي أحاطت به الأمة نفسها لما جمدت على تراث السابقين بإغلاق باب الاجتهاد والإبداع، ففرض على الأجيال المتعاقبة أن تتحاور مع عصرها بوسائل قديمة انتهى زمنها فبقيت خارج التاريخ. وهو أيضًا إجابة عن الأسئلة التي يطرحها العصر بتعقيداته المتشابكة ليتحقق للأمة حضور هذا العصر، والقدرة على التعامل معه، والتواصل مع معطياته بإعادة صياغة خطابها المعبر عن ذاتيتها، والمنسجم مع طروحاته وإشكالاته المتشعبة[٣]. والمطلوب فكر مستنير ترسخت فيه قناعات الأمة، لينشر في وعيها خياراته التي استقر عليها للانطلاق في اتجاه تنفيذ الأهداف، وبلوغ الغايات التي يجعلها رهانًا يحتاج لتمثله في الواقع إلى جهود منتظمة، يزيد توترها كلما اجتمعت المحرّضات المطالبة ببلورة الجهود، وفهم حقائق الدين وتشريعاته، لضبط العلاقات وتفعيل مجموع القيم والمبادئ في واقع الحياة. ثم يأتي فكر التجديد بعدما طرأ على الحياة عديد التغيرات، ليكون ضرورة لتنزيل النص الثابت على جميع المتغيرات، ومن ثم الاستجابة عند توفر شروطها، إذ ليس المطلوب النظر إلى نصوص القرآن وصحيح السنة بفكر الماضين وحيثيات واقعهم، فهو أحد أسباب فشل كثير من المحاولات الإصلاحية التي عوض إيجاد طريقة منهجية تحدث تفاعل النص القرآني مع كل مناهج المعرفة والثقافات الإنسانية المعاصرة، اكتفت بسحب الفهم والتنزيل الماضي على قضايا الحاضر، والسعي وراء المقاربة بينهما، بترك الأصل الذي هو أساس هذه الفهوم. ولا أعني إبعاد التراث، بل بالعكس هو مجال الاعتزاز، إنما الرجوع إلى الأصل هو عمق الإشكال المطروح ومخرج الأمة مما تعانيه. إن فهم النص لإمكان تنزيله هو المطلوب، إذ القرآن الكريم وما يلحق به من أحاديث نبوية نصٌّ -مع قدمه- يتميز بقابليته لإعادة الفهم، وهو سبب صلاحيته لكل زمان ومكان، وتميزه عن غيره من النصوص والمصادر جميعها.

فالأمر يتطلب من ذوي الأمر معالجة منهجية تتسم بالشمول والعمق، لوضع القرآن أمام تحديات عصرنا الراهن وخصائصه الفكرية وتصوراته الكونية الجديدة، للوصول إلى إثبات قدرته على امتلاك منهج نتجاوز به الحضارة الغربية بإخضاعها إلى التحليل والنقد وإدراك بدائلها الهشة، مستدلين بالدورة الحضارية الإسلامية على مدار قرون من الزمن، والتي ما قامت إلا على أسس هذا المنهج الفريد. مع الحذر من تأويل مسألة الفهم من أن يقصد بها تجاوز النص أصلاً، بل القضية تعمق في فهم النص للوصول إلى تنزيله في الحياة، ليعيد صياغة المعارف والثقافات من منظور كوني توحيدي يحرر العقل من سيطرة الفكر المادي، ويحسم جدلية الإنسان والطبيعة بما يفضي إلى توجيه الخلق نحو الحق، ونحو إنجاز الوظيفة الوجودية التي خلق الإنسان لأجلها، وخلقت الأرض لتكون مسرحًا لهذا الإنجاز. ■

(*) جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة / الجزائر.

الهوامش

(١) المشروع الحضاري نحو فهم جديد للواقع، لعبد الكريم بكّار، ط١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠، ص:٥.

(٢) ونحن نبني حضارتنا، ط١، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٢، ص:٦.

(٣) خطاب التجديد الإسلامي، أنور أبو طه-وآخرون، ط١، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٤.

hiramagazine.com

د. سلمان العودة*

إلى الإيمان من جديد

يا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾(النساء:١٣٦)؛ آمنوا من جديد بالله وأسمائه وصفاته، فإن الإيمان بالله هو قلب الحياة وضميرها: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(محمد:١٧). وفي هجير الحياة ورمضائها، يجد المؤمنون في اللجوء إلى الله ﷻ وعبادته ظلاً ظليلاً عوضًا عن حرور المعيشة والحياة، ويجدون في الإيمان حياة قائمة عوضًا عن موت الحس والقلب، ويجدون عند بابه بصَر الحق والنور عوضًا عن عمى الضلالة والظلمات: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۞ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ۞ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾(فاطر:١٨-٢٢).

فعباد الله المؤمنون، يتذوقون في اللجوء إلى الله عذوبة النجوى واللغة، فهو ملجؤهم وأنيسهم، فيقول قائلهم وهو في غمرة التعب والنصب:

منطرحًا أمام بابك الكبير..
أصرخ في الظلام أستجير..
يا راعي النمال في الرمال..
وسامع الحصاة في قرارة الغدير.

فتخيّل هذا القلب المهزوز المرتبك ينادي ربه أن يهبه الحياة والصحة والرضى، بعد أن طال بُعده عن ربه وتاهت به الدروب وأنهكته الخطوب.

إن الدعوة للإيمان، تشمل حتى أولئك المؤمنين الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم أمثالنا، وبعد ما أنزل عليهم الكتاب فاختلفوا، وأرهقهم الجدل الكلامي عن حقيقة الإيمان والحياة والعمل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(الحديد:١٦). إن الإيمان هو دوام الحب لله والتصديق به واللهج بذكره، ودوام سجود القلب لله.

سئل بعض السلف: هل يسجد القلب؟ قال: نعم، يسجد سجدة لا يقوم منها إلى يوم القيامة. وهذا الإيمان يعطي الأحياء قانون الحياة وتعاليم البقاء، ويعودهم على الشجاعة الحقيقية في معركة الحياة كما يقول أحد شعراء النضال الفلسطيني:

هاتوا أياديكم..
فمعركة البقاء تريدكم جندًا..
ومعركة الرجوع..
الموت للغر المغامر والجبان..
والمجد للبطل الذي يتحمل الصدمات.

فالإيمان بالله هو الكفاح في معركة البقاء والوجود، والعمل في سبيل الله، والكر والفر، والإقدام والرجوع.. وأما حصر الإيمان والتعبد في الأداء النسكي المحض من الشعائر التعبدية المحضة كالصلاة والصوم فقط، فهو قضاء على شطر كبير من حقيقة الإيمان والعبادة، وإن هذا المفهوم الذي يعزل بين العمل العام وبين الإيمان والعبادة، غريب عن روح الإسلام ومقاصده وثوابته، بل هو إرث كنسي مسيحي متعلق بظروف التاريخ الغربي ومشاكله الخاصة.

فالإيمان والتعبد في الإسلام، يضيف إلى كنفه كل أشكال العمل الخير والنفع الذي قصد به وجه الله ﷻ، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام١٦٢).

وقد نسمع كثيرًا من يتحدث عن الخاتمة الحسنة فيذكر من مات وهو ساجد، أو وهو قائم يصلي أو نحوه وهذا من حسن الخاتمة دون شك، إنما ليست محصورة في ذلك. فلماذا لا نثني -مثلاً- على من مات وهو مجتهد في حقله ومزرعته ونعد ذلك من حسن الخاتمة، أو من يعمل حتى يكفي نفسه وزوجته وأولاده ووالديه من العيش الحلال؟

لماذا لا نثني على من مات وهو منهمك في إبداع أو اختراع أو ابتكار، يخدم من خلاله الإسلام والمسلمين؟ لماذا لا نثني على من مات وهو منشغل في وظيفته التي من خلالها يقوم بواجبه تجاه أمته ومجتمعه، ويطلب العيش الكريم الحلال؟ لماذا نظن أن الشيء الذي ينبغي الثناء عليه فحسب هو جانب التعبد المحض دون جوانب الحياة المختلفة التي كأنها معزولة أو بعيدة.

يروى في الحديث "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها" (رواه الإمام أحمد)، والموت هو القيامة الصغرى. ففي الحديث يجعل العمل والحياة والزرع أداء لحق الله، لأن هذه الفسيلة المغروسة ليس فيها أي نفع دنيوي بعد أن تقوم القيامة.

والأنبياء ﷺ حين يدعون للإيمان فهم يدعون للحياة والعمل حين يقولون: ﴿اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٧٣). وكانوا يعيشون الحياة كلها بشكلها الطبيعي؛ يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، بل ويعدون الناس بخيرات الحياة أو يلفتون أنظارهم لها: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾(نوح:١٠-١٢).

وجعل الإسلام مفهوم الإيمان يشمل كل ضروب الحياة؛ من الضمير إلى أدنى الأعمال فقال ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون -أو بضع وستون- شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق" (متفق عليه). وقدّم تصنيفًا واسعًا مرنًا للإيمان فجعل السلام صدقة، وإصلاح ذات البين صدقة، وإعانة المحتاج، وتخفيف المعاناة عن المصابين، بل حتى الشهوة الجنسية، يقول النبي ﷺ: "وفي بضع أحدكم صدقة" قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيه أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر" (رواه مسلم).

وتاريخ الإسلام والإيمان هو تاريخ العلم والعمل والحضارة والثقافة، وتاريخ العلماء الفقهاء، جنبًا إلى جنب مع تاريخ العلماء المبدعين؛ عاشوا في جو واحد، وكانت مسؤولية الحاكم المؤمن حماية المجتمع وتطوير كل ألوان العلوم، دون أن يفتعلوا انقسامًا في عقل الإنسان وضميره وعقله بين العبادات المحضة والأعمال الدنيوية النافعة والمصالح العامة. فكل ذلك لوجه الله وفي سبيله، وصدق الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام١٦٢-١٦٣). ■

(*) عالم ومفكر وداعية / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

أ.د. حسن الأمراني*

صعودًا إلى العشق

هاجتْ ضواري الشَّوقِ في الأسْحارِ ... فسَرى نسيمكمُ إلى أذكاري
عجبًا، أطيبكُمُ سرى أمْ أنّهُ ... طيبُ الجِنانِ يهيجُ ما بقراري؟
قالوا سبيلُ العاشقينَ مزلَّةٌ ... فحذارِ مِنْ تلك السَّبيلِ حذارِ
هيهات، ما لي عن سبيلك جيلةٌ ... والشَّوق أغلَب والدموعُ جوارِ
بي مثل ما بك والمحبّة شرْعةٌ ... قدسيّة في مذهب الأبْرارِ
لي في هواك من الحنينِ قَصائدٌ ... تفْري الذي كَتَمْتُ من أسْراري
لولا الهوى لم يَرْق أبْراج السَّما ... راقٍ ولا لانتْ مُروج النار
فالطُّورُ منْدكٌّ الجوانح خاشِعًا ... متصدعٌ لمّا تجلّى البَاري
ويخرُّ موسى خشيةً ومحبّةً ... صعقا، ويشرب شرْبة استغفار
وحراء من حلل المحبَّة يزدهي ... ويحنّ، حين يحِنّ، للمختار
مولاي زدني في هواك تحيّرا ... إني رضيت من الهوى بإساري
واربطْ على قلبي، إلهي، إنه ... بك مستجير يا أعزَّ جوارِ

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب.

د. طارق الحبيب *

التربية الاجتماعية والتطرف

في هذه الأسطر سنعرض بشكل أساسي، الجوانب السلبية لهذا اللون من التربية التي تتصف بما يلي:

• عدم التربية على الاستقلالية، وإنما تفعيل روح التبعية؛ وهذا وإن بدى للناظر أنها تضبط روح التمرد لدى المتلقي، إلا أنها حقيقة لا تحقق الحاجة النفسية لدى الفرد إلى الاستقلال عن غيره، التي هي جزء من النمو النفسي السوي لنفس المراهق، والتي إن لم يتم إشباعها بدرجة كافية فسيجتهد المراهق بذاته في البحث عن وسائل الإشباع، منطلقًا من تصوره الشخصي للصواب والخطأ، أو مما يرده من مصادر أخرى قد تكون غير آمنة. ومن المعلوم أن

يجب بث روح الوعي التربوي لدى جيل الآباء، ويجب تربية الشباب على غير الطريقة التي تربوا عليها آباؤهم. والمؤلم في حال جيل الشباب المعاصر، أنه لا يعاني من الصراع مع الجيل السابق فحسب، بل أيضًا يعاني من صراع الذات الذي هو بذاته مرحلة مؤلمة من نمو الإنسان السوي.

حراء

مَن تمت تربيته على الاتباع دون الإدراك الواعي، فإنه أيضًا عرضة لاستباق الغير إليه وتربيته على اتباعه، مثلما فعل قادة التطرف مع الناشئة من الشباب، خصوصًا إذا وفروا له ما يحتاجه من احترام أو شهوات، على عكس التربية على المسؤولية التي تنتج لنا أفرادًا قادرين على الإدراك واتباع الصواب وتجنب الخطأ، مما يراه نابعًا من ذاته من فكر آمن.

• التربية على التفكير الحدي (أي إما معي أو ضدي، إما صديقي أو عدوي)، وهو أحد آثار التفكير القبلي. وتكمن خطورة هذا النوع من التفكير عند التعامل مع الآخر بأنه شر محض أو خير محض، وبالتالي يكون سهل الانقياد من قبل الآخرين من خلال كشف خطأ في الشخصية المراد إسقاطها، أو تلميع ميزة في الشخصية المراد إبرازها لدى المتلقي، فيُسقط هذا، ويقدس ذاك. ولكي لا يشعر ذلك الفرد بالازدواج النفسي، فقد يرفض المراجعة لأفكاره، أو ينطلق من روح الشك في التعامل مع الآخر.

• تفعيل ثقافة الخوف؛ مما يؤدي إلى نشوء ثقافة الصمت فلا يتم التعبير عن الرأي، ولذا يخسر المربي من حيث يظن أنه قد نجح في أن المتلقي لا يشتكي من شيء، رغم أن الذي منع المتلقي حقيقة من التعبير، هو خوفه الذي أظهره بشكل مقبول من خلال الصمت الذي هو أحد علامات القبول والرضا في الحس الاجتماعي، إنه الالتزام الخائف.

هذا اللون من التربية يؤدي إلى ظهور السلوك الانتهازي والنفاق، ولذلك كلما ازداد رفعة اجتماعية كلما ازداد خوفه ونفاقه، مما يؤدي إلى عيش الجميع في وهم أن الأمور على خير ما يرام، ولكن الواقع غير ذلك.

• بث ثقافة ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾(الزخرف:٢٢) في نفوس النشء، مما يقلل روح الإبداع في نفوسهم، ويفعل روح المحافظة على ما هو موجود والخوف عليه. ولقد أدى هذا بدوره إلى عدائية الجديد وعدم مراجعة القديم، بل والمحافظة عليه صالحه وطالحه، بل وأحيانًا وصف الجديد بالبدعية والمجدد بسوء النية، دون نظرة فاحصة تحليلية قد تصل -إنْ وظفت إيجابيًّا- إلى التوافق الكامل أو الجزئي، أو الرفض على بينة.

ولعل خوف البعض من الحوار حول جواز وجود يوم وطني للدولة، يعكس لنا شيئًا من هذا الفكر. ورغم علمي بفتوى العلماء بحرمة الاحتفال بعيد غير عيد الفطر وعيد الأضحى، ومنها الاحتفال باليوم الوطني، إلا أنني لا أرى غضاضة من جعل هذا اليوم يوم مراجعة لماضي هذا الوطن واستشراق للمستقبل.

• تقديم المفهوم الاختزالي للدين من حيث التربية على السلوك أكثر من الفكر والمشاعر، ونسيان الناس أن الدين ما وقر في القلب وصدّقه العمل. ولذا تجد عدم التركيز على القيم والمبادئ -في بعض الأحيان- كما يجب، وإنما تقديم الوصف السلوكي لأوامر الدين وجعله طقوسًا خالية من القيم والمعاني.

• عدم تفعيل الموضوعية في علاقة الفرد بالآخر، وإنما الشخصانية هي التي تحكم فكر المتحاورين في أكثر الأحوال. بل أصبحت العلاقة الشخصية تؤثر في القرار الإداري أكثر من الأنظمة التي تعاني من عدم الوضوح ومن إمكانية التحايل عليها. بل إن تلك الأنظمة قد تشربت فكر الشك بالآخر، ولذا جاء كثير منها معيقًا لحركة التقدم في المجتمع، حيث التضييق أكثر من التيسير، وإذا حدث التيسير فهو من شخص المسؤول لا من طبيعة النظام.

• عدم التجديد في أساليب التربية، وافتراض الستاتيكية (الجمود) في مجتمع ديناميكي (متغير) وعالم متسارع التغير والتطور.

• تشير بعض الدراسات النفسانية، أن الفرد يسلك ما يتوقعه غيره منه. ولذا فإن افتراض الشيطانية والمخادعة

hiramagazine.com

في نفس المتلقي، التي ينتهجها البعض في تربية الأبناء، أكثر من افتراض الخير والصدق، تؤثر تأثيرًا بالغًا في سلوك الناشئة.

• تدريب الابن وتشجيعه على ممارسة ما يجب من مثله أن يمارسه في تعريف المجتمع، أكثر من ممارسة ما يحب ويريد من المباحات. والإشكال في هذا يكمن في نشوء فكر القولبة (النمطية)، أي وجود قالب واحد هو المرجعية في التصوبة والتخطئة في أمور يفترض فيها تعدد الميولات والتوجهات، مما يؤدي بدوره إلى إضعاف القدرة على تأمل الصواب والخطأ، وإنما افتراض المثالية في شيء ما والاحتكام إليه. إن هذا اللون من التربية النفسية يعني إهمال نمو فردية الإنسان، مما قد يدفع المجتمع إلى السير ضمن تقاليد تجعل الفرد صورة كربونية من الآخر.

• عدم الانطلاق في التربية من المفاهيم الصحيحة وإنما من الانطباعات والظنون، وتغليف ذلك بما يناسب المتلقي لكي ينال القبول مع الأيام باعتياد الناس عليه.

• استخدام المنهج التوفيقي غير المقنع عادة والحلول المؤقتة لأزمات ومشكلات طويلة المدى.

• تركيز الرقابة الأسرية على سلوك النشء أكثر من بناء الفكر وتقييم الشخصية والبنية النفسية لديهم.

• عدم تفعيل روح الاعتذار كما ينبغي، وعدم قبول احتمال حدوث الخطأ من الناشئ بالدرجة الكافية.

• أصبح المتلقي -ربما بسبب الطفرة التنموية المتسارعة جدًّا- أكثر تأهيلاً نفسيًّا وحضاريًّا من الموجه، مما سبب شيئًا من صراع الأجيال، لكنه لم يظهر على السطح جليًّا بسبب درجة الضبط الأخلاقي الديني، كبرّ الوالدين مثلاً. ولذا كان لزامًا بث روح الوعي التربوي لدى جيل الآباء، وإدراك أن زمان الأبناء غير زمانهم، ولذا فيجب تربية الشباب على غير الطريقة التي تربوا عليها. والمؤلم في حال جيل الشباب المعاصر، أنه لا يعاني من الصراع مع الجيل السابق فحسب، بل أيضًا يعاني من صراع الذات الذي هو بذاته مرحلة مؤلمة من نمو الإنسان السوي.

• وجود العلاقة السلطوية لا التفاعلية المفتوحة

تفعيل ثقافة الخوف، يؤدي إلى نشوء ثقافة الصمت فلا يتم التعبير عن الرأي، ويؤدي إلى ظهور السلوك الانتهازي والنفاق، ولذلك كلما ازداد الفرد رفعة اجتماعية كلما ازداد خوفه ونفاقه، مما يؤدي إلى عيش الجميع في وهم أن الأمور على خير ما يرام، ولكن الواقع غير ذلك.

حراء

بين الموجه والمتلقي، بين المدرس والطالب، وكذلك بين الأب والابن، هذا النوع من العلاقة يحد من درجة التواصل، ويقتل روح الحوار، ولذا ربما بحث المتلقي عن حل لتساؤلاته عند من يستمع له، وهو ما حدث تمامًا لشباب التكفير الذين اتجهوا إلى بعض علماء الشريعة المميزين ابتداءً، لكنهم كانوا في الغالب يقابلون بالطرد أو رفض الحوار لأنهم في نظرهم صبيان أغرار، والتي هي في نظري امتداد لهذا النوع من العلاقة الاجتماعية (البنية الأبوية السلطوية)، مما حدا بأولئك الشباب إلى البحث عن رموز دينية خارجية لم تعرف بالعلم الشرعي الواسع، أو رموز داخلية أقل علمًا لكنها أوسع صدرًا، تقبلتهم، وكسبت ثقتهم، واستطاعت أن تبذر في صدورهم حقيقة الولاء لهم.

إن ما نريده هو الأسرة المفتوحة ذات العلاقة التفاعلية التي تتصف بما يلي:

١- السلطة فيها ليست سلطة بمقدار ما هي قيادة وتوجيه.

٢- فيها يتربى الأفراد على احترام الذات والتفكير الإيجابي، بمعنى أنه يفعل الخير لأنه جيد له، ويترك الشر لأنه يهينه ويضعه في موقف المساءلة.

٣- داخل هذا النوع من الأسر تتوزع الأدوار، فالأب له دور، والأم كذلك، والابن والبنت، فتتفاعل هذه الأدوار فيما بينها بشكل تعاوني فيه الخير للجميع.

٤- فيها علاقة الحب واحترام الآخر. ■

(*) المشرف العام ومؤسس مركز مطمئنة الطبي بالرياض / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

أ.د. فؤاد البنا*

رُشْد الجيل الذهبي

يطفح واقعنا بظلمات الأمية الفكرية السوداء ويعجّ بفواجع الغَيّ السياسي القاتمة، وهو أحوج ما يكون إلى استدعاء قناديل الرشد التي بدّدت حوالك القرون وأضاءت مجاهل الحياة، جاعلة عصر الصحابة الكرام أكثر عصور البشرية ضياء وبهاء بفضل الطاقة التي بعثتها التربية النبوية المُنيرة، مضيئة ذلك العدد الهائل من النوابغ والأفذاذ، والذين استقاموا سامقين كنخيل صحرائهم، واستحالوا إلى روافع عروج ودوافع بناء، وصاروا مصابيح هداية وقناديل استنارة.

بوصلة القرآن

كان الوحي شمسًا اقتبس منه الصحابة تلك الأشعة الباهرة حتى أصبحوا نجومًا في سماء الدنيا وكواكب في آفاق الناس. لقد ظل الصحابة الكرام ﷺ يغرفون من بحر الكتاب الخالد زيت التقوى الذي أنار نفوسهم وأسرج دروبهم، يسيرون في الدنيا وعيونهم على الآخرة، يمشون على الأرض وقلوبهم في السماء، وبفضل هذه المعادلة ما برحوا عازفين لألحان الخلود، عازفين عن الركون إلى الفانية.

وعندما أخذوا الكتاب بقوة، حَكَموا نفوسهم الأمّارة وألجموا شهواتهم الثائرة، وحينما شربوا من "كؤوس القرآن" استطاعوا أن يُجرعوا العِدى "كؤوس المنون".

وبفضل "بوصلة" القرآن، امتلكوا "بواصر" الأفهام التي ترفض التخاريف والأوهام، وصارت عقولهم "تصطرع" حول مختلف المسائل، لكن قلوبهم لا "تضطغن"، فقد ألَّف الله بينها بروابط دينه العظيم، وعصمها بحبل كتابه الكريم، وظلّلها به من هجير الضلال المبين، حيث احتوى على الثوابت التي استظل الجميع تحت سقفها العالي، حاميًا إياهم من نيازك الإغواء وحِمم براكين الضياع.

وما فتئوا يلتزمون أسباب الهدى ويسيرون في صراط الحق، ويحاربون عوامل الردى ويتجنبون سبل الغواية، حيث يجذلون بالطاعة ويَوْجلون من المعصية، يتقربون من الخالق زلفى آناء الليل، ويقتربون من الخلْق تقوى في ساعات النهار، وفي أوقاتهم كلها لا يكُفّون عن استحضار روح التعبد لله في محراب الحياة، محتسبين الأجر ومشفقين من الوزر.

ولهذا فقد اعتلَوْا -بجدارة- مقامات الإحسان، حيث أتقنوا مفردات الإتقان، وأحسنوا اجتراح وسائل الإحسان، وأحكموا صناعة الإحكام، وأجادوا الوصول إلى منتهى الإجادة، وجوّدوا متطلبات الجودة، وظلوا دومًا من العاملين لا من الخاملين.

ولقد ظلت وجوههم بأنوار الإيمان تتوهّج، وألسنتُهم بذكر الله تَلهج، وقلوبُهم بحب إخوانهم تتأجج، يركبون المصاعب ويقتحمون الأهوال، يشتدون عند الشدائد ويَلْتَمّون عند الملمات، يُسبّحون لله بالعشي والإشراق تسبيحًا مهيلاً، ويَسْبحون في محيطات النهار سبحًا طويلاً، يَعْمُرون الأرض ويَحْفظون العرض، يقيمون البنيان ويخدمون الإنسان، داخلين إلى محراب العبودية الكوني من سائر أبواب الإيمان.

الفكر الفعّال

ظل الصحابة العظام يحفرون أنفاق التعمق الفكري والتفوّق الفعلي، بأظافر الإرادة الحديدية وبمعاول الهِمّة العالية، ويطيرون في آفاق الفاعلية بأجنحة العلم

لكي تصل أجيالنا ما انقطع وتُكمل ما ابتدأ، وحتى تكون مِسْكًا لأمتها الزاكية، لا بد أن يتنافس المتنافسون من أبنائها على ارتشاف منهج الرشد من معين الصحابة الكرام، واحتساء سنن التمكين من غدير سلفها الصالح.

حراء

وأشواق الفكر ويعتلون بأتواق العرفان، مما أثمر رعاية الله لهم وعنايته بهم.

ولقد عُرفوا دومًا بإتقان فقه الإعذار، والبحث للآخرين عن أعذار، مدركين أن فوق أخطاء الغافلين رحمة خير الغافرين، ولذلك كانوا عن المخطئين صفّاحين، وللأخطاء صفّاعين.

ومهما غضبوا فإن رياح غضبهم لا تُطفئ سُرُجَ عقولهم، ومهما تصاعدت أدخنة الأحقاد التي يوقدها أعداؤهم، فإنها لا تعميهم عن رؤية الحقائق وإدراك الدقائق، ولا تذرُّ الرماد في عيونهم حائلة بينهم وبين الرحمة والصفح، ولا يمكن أن تتسلل إلى دواخلهم وتُسوِّد قلوبهم، فهي دائمًا بيضاء ببياض الحقيقة الناصعة في سواد الأوهام، متوهجة كتوهج الشمس في كبد السماء.

انشغلوا بأخطائهم عن خطايا الآخرين، وبقصور ذواتهم عن تقصير الناس، وما فتئت دموعُهم تَنسكب على ما فرطوا في جَنب الله، حيث يمسحون أدرانهم بدموع الوَجَل النادم، ويمحون ذنوبهم باستغفار الإنابة الخالصة، ويغسلون أخطاءهم بماء التوبة النَّصوح، ويُصحِّحون سَيْرهم ببوصلة المجاهدة الصارمة.

ويبدو أن الصحابة عندما وصلوا إلى جبل الفكر الراشد، وضربوه بعصي الأسباب، متوكلين على الله، فقد انفرجت أزماتهم، إذ انفجرت من هذا الجبل اثنتا عشرة عينًا، سالت بأوديتها المقدّرة لها، وهي: الإيمان الخلّاق، والعمل الباني، والجهاد الرادع، والحرية الخالصة، والمساواة العادلة، والوحدة الجامعة، والأخوة المتضامنة، والسلامة الآمنة، والسعادة الغامرة، والقوة المانعة، والرفاهية الماتعة، والشورى الصادقة.

وعند هذه العيون، عَلِمَ كُلُّ أناس مشربهم، إذ

hiramagazine.com

أخبرهم المصطفى ﷺ بأن كل إنسان "ميسر لما خُلق له".

ومن مياهها الغزيرة وخيراتها الوفيرة، استقت الأفئدة العطشى، وارتوت المجتمعات الظمأى، لتُنبت أمَّتُنا من كل نفع بهيج.

لقد كانت هذه القيم درجات في سُلّم الوصول إلى الرشد المنشود، وصارت "مقومات" انتصب عليها الرشد واعتلى فوقها الخير، وذلك في مرحلة معانقة الأسباب ووضع البذور في تُربة الحياة أي في "المرحلة الكَسبية"، فأثمرت كل حبة منها سبعمائة ضعف في "المرحلة الوَهبية".

نجوم "سماوية" وكواكب "أرضية"

كانت أقدام الصحابة ﷺ في "الثرى" منغرسة، ورؤوسهم في "الثريا" مرتفعة، فجمعوا بذلك بين معاقرة الواقعية ومعانقة المثالية.

اتخذوا من آيات الله "بصائر"، ومن آيات الكون "قناديل"، ومن آيات الأنفس "مصابيح"، فاستضاءت قلوبهم واستنارت عقولهم، ومن ثمَّ أشعّت نفوسُهم بالضياء، وتوهجت أرواحهم بالإشراق، وسطعت أفئدتهم بالأنوار.

لقد حدث ذلك لأن عقولهم ارتشفت ضياء الكتاب الرباني، واحتست قلوبهم سناء السنة النبوية، وتشرّبت أفئدتهم أنوار الحكمة المحمدية، فاضطرمت أشواقهم، وانتفضت مشاعرهم، وسَمَتْ غرائزهم، وأشرقت نفوسهم، وبرقت أفكارهم، وتوقدت عزائمهم، واشتعلت جوارحهم، لينطلقوا في آفاق الأرض، يستخرجون من بطنها الدُّرر، جاعلين ظهرها دراري، وفي قلب الوجود صاروا منارات، مُحيلين مجاهل التأريخ المظلمة إلى كواكب دُرية منيرة.

وبواسطة الفكر النيّر أزالوا نَيْر الاستبداد والاستعباد، وبمشاعل الحكمة الثاقبة هتكوا أستار النفاق وهدموا حُجُب الغفلة ومزقوا أغلفة الران، فأشعّت النفوس وشفت الأرواح، وأشرقت القلوب بنور ربها، منتصرة على أغلفة التراب وحجب الطين، وعلى حوالك الطغاة وظلمات الشياطين.

زرّاع الأعاجيب وصنّاع الدهشة

لقد عصر الصحابة الأعاصير مستخرجين منها ماء ثجّاجًا، وجفّفوا المستنقعات الآسنة محيلين إياها إلى واحات تزدهي بالجمال الآسر وتزدان بالثمار اليانعة. وأثبتت القرون أنهم قهروا القهر، وعصفوا بالعَسْف، وأجبروا الجور على الاختباء تحت أكمام المستبدين والاختفاء في قلوب الظالمين، فتسلّطوا بقوة الحق على الطغاة، وسطوا بالجبابرة، وقصفوا الفراعنة، وأوقعوا بالمتجبرين، وساموا المتكبرين، داسّين أنوفهم في التراب الذي صُنعت منه أول مرة، ومذيقين إياهم بعض حصاد أيمانهم.

جعلوا مزارعهم محاريب، وسبحاتهم محاريث، فتعبّدوا الله بعمارة أرضه، وتقربوا إليه بخدمة خلْقه، ولهذا اختفت في عصرهم السجون وسُخِّرت الحروب لخدمة حقوق الإنسان، وتضاعفت البيادر وكثرت مواسم الحصاد.

لقد امتلأت الخزائن بالأموال، واكتظت المخازن بالغلال، إذ ابتغى عامة المؤمنين من فضل الله، وبحثوا عن نعم الله، واكتشفوا آلاء الله، وتمتعوا بالطيبات التي منحها لهم الله، مُغَيِّشين للضعفاء في أحضانهم، كافلين للفقراء في أكنافهم.

دهاؤهم يعصف بالدواهي

نجح دهاؤهم في لَجْم الدواهي، ونجح ذكاؤهم في إذكاء الفطنة، وصنعوا من الإخفاقات خبرات، ومن العثرات عبرات، جاعلين من التحديات فرصًا ومن الدركات درجات، ومن العاهات واحات.

لم يندبوا حظهم وإنما انتدبوا أنفسهم لمعالجة الندوب، حيث عثروا على دواء العثرات وتوصلوا إلى أكاسير الحياة، وترايق التخلف، ونجحوا في إبراء عضلات الأمة من معضلاتها.

لقد واجهوا العَسْف بالعدل، والتحكم بالحكمة، والمكر بالفطنة، وألاعيب السياسة بالكياسة، وقابلوا صَرْصَرَ الاعتداء بدَمْدَمَة الجهاد، ودمّروا عواصف الباطل بقواصف الحق، ومزقوا أغلال التقليد بسيوف التجديد، وطردوا أضناك الشتاء بمباهج الربيع.

hiramagazine.com

وبهذا المنهج المتين ألبسوا الزمن حُللاً سندسية، وطرّزوا الدهر بمنجزات عَسْجَدِية، عبر أناملهم الذهبية التي زينت الوجود بأبهى الروائع، وبَهْرَجَت الحياة بأفخم المباهج.

لقد انتقاهم الحق من جموع الخلق، واختارهم الحكيم من بين الورى، وغَرْبَلَهم من بين أشتات البشر، وامتحنهم من بين معادن الناس، فكانوا أهلاً لاصطفائه، جديرين باجتبائه، إذ سطروا لوحة الكون ببدائعهم، وبيضوا كتاب التاريخ بفضائلهم، وحبَّروا صفحة الوجود بمنجزاتهم، ولَوَّنوا وجه الحياة بآثارهم.

العاقبةُ المُسْتَحَقَّة

وعد الله الصحابة ﷺ بالتمكين الكامل، وكتب لهم الغلّبة القاهرة، وتكفل لهم بالفتح المبين، ومنحهم الفوز العميم، ووهبهم النصر العظيم، وجعل لهم عقبى الدار.

ذلك أن عبادتهم لله كانت واصِبَة، ورؤاهم صارت لازِبَة، يسابقون في دروب المدافعة، ويسارعون إلى مراكب التمكين، يسلكون كل سبيل إلى النصر، ويأخذون بكل سبب إلى التقدم، ويدخلون إلى الفتح من أبواب متفرقة، حريصين على استثمار سائر الوسائل الموصلة إلى عقبى الدار.

لقد ركبوا سفن السنن في لُجَج الحياة، ومَخَروا عُباب الفتن وأمواج المحن بمجاديف الأسباب، حيث ولجوا إلى التنظير وهرعوا إلى التخطيط، وركضوا في مضمار العمل الجهادي وجروا في ميادين الدأَب البِنَائي.

لم يعرفوا الاتكال ولم يعرفهم التواكل، لم يقفوا عند الأماني ولم يوقفهم التواني. اجتازوا إلى الآمال فوق جسور الأعمال، وأحالوا الأفكار إلى أفعال عبر قناطر التخطيط، لم تأتهم أحلامُهم ليلاً في عالم الخيال، بل جاؤوها نهارًا في عالم الأعمال، حيث أناروا فجرهم بوميض آمالهم، وتنفس صباحُهم من أنفاس عزائمهم، وشعّ ضُحاهم من أشعة إنجازاتهم.

ارتشاف الرشد

ولا شك أن الصحابة ﷺ خير أجيال البشر طُرًّا، وخير الصحابة هم الخلفاء الراشدون، ولذا جعلهم هذا الدين محلاً لتأسي الأمة بهم كلما أرادت العودة إلى الرشد حتى قيام الساعة.

فقد وضعهم القرآن في جبين الإنسانية الناصع، ورفعهم إلى ناصية الخَلْق الرفيعة، حيث رضي الله عنهم ورضوا عنه، وميَّزهم بمكانة راقية، نتيجة إمكاناتهم الهائلة، جزاء وفاقًا، وأجادت عقولهم التعامل مع الكتاب، وبتدبر القرآن ارتقت قرائحهم إلى سماء الابتدار والابتكار.

لقد أمرنا الرسول ﷺ بالاقتداء بالصحابة عامة والراشدين خاصة، والنهل من رحيق منهجهم، والاستضاءة بأنوار هُداهم، بعيدًا عن أشخاصهم، إذ خَبِرَهم الرسول ﷺ عن قُرْب، فقد كانوا عجينة ليّنة بين يديه المباركتين، مُشكّلاً منهم أعدادًا غفيرة من العباقرة والعمالقة. ولأن "الله أعلم حيث يجعل رسالته"، فقد هيأ الظروف والمناخات المناسبة لولادة جيل الكمال وبزوغ عصر الضياء، ليظل مصدرًا للاستنارة والاستضاءة إلى قيام الساعة.

ولأنه "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" كما قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي، ولما أثبتته الوقائع في شتى القرون، فإنه من الضروري بمكان أن يتم إعادة قراءة تجربة الخلافة الراشدة، بحثًا عن أجنحة الإقلاع الحضاري، من الناحية المنهجية، وليس من ناحية المفردات والتفاصيل، حتى يتم استقراء الأساسيات والكليات التي توافرت للراشدين الخمسة، بحيث إذا تظافرت يتشكل من مجموعها منهج للتأسي والاقتداء في هذا الزمن، يساعد الأمة على معاودة الإقلاع الحضاري من جديد.

ولكي تصل أجيالنا ما انقطع وتُكمل ما ابتدأ، وحتى تكون مِسْكًا لأمتها الزاكية، لا بد أن يتنافس المتنافسون من أبنائها على ارتشاف منهج الرشد من معين الصحابة الكرام، واحتساء سنن التمكين من غدير سلفها الصالح، فإن منهج الصحابة ﷺ "رحيق" مصفًّى لأبرار عصرنا و"تَسنيمٌ" عذبٌ للمقرَّبين في دهرنا، حتى ينجح سعيُهم لتحقيق الخلاص المنشود وتقريب التمكين الموعود. ■

(*) أستاذ الفكر الإسلامي السياسي، جامعة تعز / اليمن.

المجتمع الإسلامي في بُعده الإنساني

تقرر كثير من الآيات القرآنية حقيقة المجتمع الإسلامي وطبيعته ومساحته وحدوده منذ اللحظة الأولى لإعلانه وبيان معالمه وسماته بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ بصيغة الجمع المطلقة غير المقيدة بجنس أو عرق أو لون، وهذه مساحته وحدوده. إنه "مجتمع إنساني" بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، فهو يؤسس نظامه على "العبودية لله" وحده من غير تمييز عنصري ولا عرقي ولا قومي ولا إقليمي. فكل البشر عبيد لله وحده، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

إن مجتمع عباد الرحمن مجتمع عالمي مفتوح لكل بني الإنسان، يقرر منذ اللحظة الأولى هذه الحقيقة الثابتة أن البشر كلهم "عباد الرحمن"، وأنهم يرجعون إلى أصل واحد، فلا ميزة لجنس على جنس، ولا للون على لون، ولا لقوم على قوم، وأن اختلافهم في الأجناس والأعراق والشعوب والقبائل

من أجل التعارف لا التناكر، ومن أجل التنوع لتبادل المعرفة والمنافع والمصالح والتكامل حتى تستقر الحياة وتستقيم وتستمر. فلا ميزة ولا أفضلية لجنس أو لعرق أو لقوم؛ لأن الإنسان لا خيار له في اختيار جنسه أو لونه أو عرقه، فلا يصلح هذا ميزانًا لبيان فضله وقدره وميزته، وإنما الميزان في بيان الأفضلية، يرجع إلى اختيار الإنسان وإرادته وعمله وطاعته لله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). وبذلك ينفي عن مجتمع "عباد الرحمن" فكرة التمييز العنصري المقيتة، ويفتح زراعيه لبني الإنسان جميعهم على أساس المساواة الكاملة والشعور الإنساني السامي الخالص، والعبودية المطلقة لله وحده.

احتضان الناس في ظل العبودية لله

وهكذا يضم مجتمع "عباد الرحمن" جميع الأجناس والقوميات واللغات والألوان والأعراق في ظل العبودية لله، وفي حمى نظامه الاجتماعي الذي يحس به الناس بآصرة واحدة تربط بينهم جميعًا، آصرة العبودية "لله" التي تحقق الرابطة الإنسانية الحقيقية بين البشر. فالبشر كلهم لآدم وآدم من تراب، وهم مستخلفون في الأرض لعمارتها وزرع الخير فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠). وهذا تكريم للإنسان وإعلاء لشأنه وتمييز له على سائر المخلوقات، وشعوره بذلك يدفعه إلى مدّ يده لأخيه الإنسان، يطلب عونه ومشاركته في رسالة الاستخلاف المنوطة بالجنس البشري كله. وبذلك يشعر الناس جميعًا بالأخوة والمساواة في عمارة الأرض واستخراج كنوزها، متحررين من النزعة الاستعمارية التي جرّت على البشرية ويلات الحروب والكوارث والدمار. إن السمة البارزة في مجتمع "عباد الرحمن"، والتي وردت في مقدمة وصفه أنه "مجتمع إنساني" يتجه فيه الناس جميعًا إلى رب واحد لا أرباب مختلفة، تتنازعها الأهواء والتقلبات فيتيه الناس ويشقون من أمزجتها المتقلبة. إن الناس في مجتمع عباد الرحمن يشعرون بالكرامة الإنسانية، فيسيرون في الحياة بلين ورفق وقصد وهدف، سيرًا

يضم المجتمع الإسلامي جميع الأجناس والقوميات واللغات والألوان والأعراق في ظل العبودية لله، وفي حمى نظامه الاجتماعي الذي يحس به الناس بآصرة واحدة تربط بينهم جميعًا، آصرة العبودية "لله" التي تحقق الرابطة الإنسانية الحقيقية بين البشر.

حراء

يليق بالإنسان المستخلف الذي يشعر بالأخوة الإنسانية، وبآصرة العبودية لله، فلا يستعلي على غيره ولا يستكبر؛ إنه يمشي على الأرض هونًا باتزان وتواضع من غير ذلة وانكسار وضعف، شعاره "السلام" في تحيته وتعامله وسلوكه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾(الفرقان:٦٣).

مجتمع السلام العالمي

إن مجتمع عباد الرحمن مجتمع إنساني، ومجتمع سلام عالمي تشعر البشرية المتعبة في رحابه بالأمن والسعادة والاستقرار. إنه المجتمع الذي تبحث عنه البشرية اليوم لحل مشكلاتها وقلقها واضطرابها بعد عصور الضياع والشقاء في ظل الأنظمة الوضعية المبنية على الأهواء والعنصرية والمحاباة. إن الإسلام يزيل كل الحواجز والفوارق التي تقوم على العنصرية المؤدية إلى استعمار الشعوب واستغلالهم، لأنه ينطلق من مفهوم "العالمية" لا القطرية الضيقة المحدودة، ولا القومية العنصرية المقيتة، فالله ﷻ هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:٢)، والرسول ﷺ بعثه رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧). وبذلك تتسع فكرة "الوطن" للإنسان ولا تنحصر في حدود جغرافية ضيقة، لأنه خليفة في الأرض يسعى لعمارتها وتحقيق السعادة للبشرية كلها ضمن الرابطة الإنسانية التي يدعو إليها الإسلام ويقيمها ويحميها. وهذا المعنى لا يتناقض وفكرة الوطن الواحد لأمة معينة أو شعب محدد؛ فهو لا يلغي فكرة الانتماء للوطن القومي في إطار الشعور الإنساني النبيل السامي الذي تجتمع في ظله الجنسيات والقوميات واللغات والألوان لتحقيق هدف مشترك للوطن الذي يعيشون فوق ترابه وأرضه تجمعهم روابط الأخوة والعمل

hiramagazine.com

والتعاون والأهداف الوطنية المشتركة، بعيدًا عن الإكراه المقيت الذي لا يتفق وروحه وآفاقه الإنسانية، وبعيدًا أيضًا عن مشاعر الكراهية لجنس أو لون أو طبقة. فأقام "الأخوة الإسلامية" مقام روابط الدم والنسب والعرق والجنس: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾(الحجرات:١٠)، وجعل رسالة المجتمع الإسلامي دعوة الناس إلى الهداية والعدل والخير والإصلاح وتعمير الحياة، ومحاربة الشر والظلم والفساد. وهذه هي مهمة الأمة الإسلامية في القديم والحديث، نالت بها "الأسبقية" و"الخيرية" على سائر الأمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(آل عمران:١١٠). وتؤدي الأمة هذه الرسالة المنوطة بها بالحكمة والموعظة الحسنة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(النحل:١٢٥). فليس في مجتمع عباد الرحمن كراهية للأجناس أو الأديان الأخرى، بل الرغبة في جذب الإنسانية للخير، وتعمير الأرض، وتسخير مواردها لسعادة الإنسان ورفاهيته... فلكل جنس أو دين حريته ضمن إطار مبادئ المجتمع الثابتة التي تحمي أفراده جميعًا من الظلم والقهر والعدوان، وتقيهم من أشكال الفساد والانحلال الخُلقي.

عدم الإكراه في العقيدة والفكر

إن الاختلاف والتنوع، من سمات مجتمع عباد الرحمن، لأنه لا يقبل "الإكراه" في العقيدة والفكر، بل إنه يعتبر هذا الاختلاف "إرادة إلهية" لا يمكن إلغاؤها أو ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(هود:١١٨-١١٩). ويبين الله ﷻ لنبيه ﷺ أن "إرادته" لم تشأ أن يكون الناس جميعًا مؤمنين، وأن مهمته الموكلة إليه تقتصر على التبليغ والبيان من غير قسر أو إكراه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٩٩)، ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٥٦).

فالإسلام يعتبر الاختلاف بين البشر "سنة كونية" و"إرادة علوية" من أجل تكامل الحياة، واكتمال منافع البشر ومصالحهم فيها. وهذا الاختلاف ملحوظ في عمارة الكون وبنائه، ومرئي في خلق البشر بأشكال وألوان وقدرات ذهنية وجسمية مختلفة، وفي خلق النباتات والثمار والزهور المختلفة أيضًا في أشكالها وألوانها وحجومها وطعومها. إنها سنة الله في خلقه، تقوم على الاختلاف من قبيل التنوع والإبداع، ونفي الشكل الواحد والجنس الواحد واللغة الواحدة في الكون والإنسان والحياة. إن هذه "التعددية" في مجتمع عباد الرحمن، تماشي طبيعة العالمية وحقيقته الإنسانية في احتضان القوميات والديانات كلها، مقررًا أن "الإله واحد"، وأن العقيدة واحدة، وأن الدين واحد هو "الإسلام"؛ إسلام الوجه لله وحده دون شريك، وهذا هو أساس "العقيدة" الثابت في الديانات السماوية كلها من غير تبديل ولا تحريف. أما "الشريعة" والتي تضبط سلوك الناس وتنظم شؤون حياتهم، فهي التي تتطور حسب حاجات الناس ومصلحتهم ونموهم وإدراكهم.

البُعد عن التعصب الديني

إن المجتمع الإسلامي بعيد عن فكرة "التعصب الديني" التي تسبب الحروب بين البشر، والتي تتولد من الفكرة العنصرية المقيتة لأتباع دين معين. فليس هناك عصبية دينية منغلقة، كاليهودية التي أغلقت أبوابها أمام الآخرين، واقتصرت على أتباعها المنحدرين من أصول يهودية، لأنها تزعم أنهم شعب الله المختار وأن الجنة حكر عليهم. وقالت النصرانية مثل ذلك، فجاء القرآن الكريم وأزال التعصب الديني من جذوره حين قرر أن الله واحد لا أبناء له، وليس هناك شعب مختار من سائر الشعوب، وأن المعيار لدخول الجنة هو العمل الصالح: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾(المائدة:١٨)،

hiramagazine.com

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:١١١-١١٢). ويعلن القرآن الكريم أن تكريم الله يشمل بني آدم جميعًا، وأن التفضيل بينهم يقتصر على ما يقدمون من أعمال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠). فالقرآن ينقض مزاعم اليهود حول الشعب المختار، ويعلن صراحة أن البشرية كلها مختارة في الأرض بموجب إرادة الله في استخلاف الإنسان من غير تخصيص جنس أو عرق أو قوم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ﴾(البقرة:٣٠).

وهكذا سار مجتمع عباد الرحمن في التعامل مع الديانات الأخرى وأتباعها بروح الإسلام والتسامح والسلام. فقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى في التعامل مع الآخر من أهل الكتاب، فكان يزورهم ويكرمهم ويعود مرضاهم ويأكل طعامهم ويشيع جنائزهم، حتى إنه فرش عباءته لوفد نجران ليجلسوا عليها، وكان يقترض من بعض أهل الكتاب نقودًا، ويرهن أمتعته عندهم، ومات ودرعه مرهون عند يهودي. كان يفعل ذلك من أجل أن يقدم المثل لأصحابه في معاملة أهل الكتاب، وكان فيهم الموسرون الأغنياء الذين يفدون النبي ﷺ بأموالهم وأنفسهم، فأراد أن يقدم لأصحابه النموذج العملي لمجتمع عباد الرحمن وأفراده الذين يمشون على الارض هونًا، فلا يعتدون ولا يظلمون ولا يتعالون على عباد الله، بل يشعرون بالرابطة الإنسانية التي يجتمع الناس جميعًا في ظلها، وينعمون بخيرها العميم الوافر.

التسامح والوئام

وسار المسلمون على نهج نبيهم ﷺ، فاختلطوا بالأمم وأهل الديانات الأخرى، وعاشروهم بالمعروف والتسامح والوئام، وتعاونوا معهم على العمل والخير وبناء المجتمع. فكان المسلم يسكن بجوار المسيحي أو اليهودي، ويؤدي له حق الجوار كاملة دون نقصان، لأن أخلاق عباد الرحمن لا تفرق في حقوق الجوار وغيرها بين مسلم وغير مسلم. فقد روي أن ابن عباس ﷺ ذبح شاة فقال لغلامه "لا تنس جارنا اليهودي أن تعطيه منها" وكرر له ذلك، فتعجب غلامه منه، فقال له ابن عباس "إن النبي ﷺ أوصانا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه". فابن عباس كان يراعي حق الجوار لجاره اليهودي فيهديه من ذبيحته ويكرمه ويهتم به.

وسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ حين حضرته الصلاة وهو في كنيسة القيامة ببيت المقدس، لم يصلّ فيها خوفًا من أن يتخذها المسلمون حجة من بعده لإقامة مسجد فيها، فقد أدرك بثاقب نظره معنى "الحرية الدينية" التي يعطيها مجتمع عباد الرحمن لأفراده المقيمين فيه ولو كانوا مخالفين له في العقيدة والدين، بل إن تطبيق "العدالة" تشمل جميع أفراد مجتمع "عباد الرحمن" دون تمييز.

وقد عاش أهل الكتاب في مجتمع عباد الرحمن ينعمون بعدالته، ويتنعمون بخيراته سواء بسواء مع المسلمين. فقد روي أن ولدًا لعمرو بن العاص ﷺ ضرب فتى قبطيًّا وكان عمرو بن العاص حاكم مصر آنذاك، فجاء القبطي إلى المدينة وشكاه لعمر بن الخطاب ﷺ، فأرسل عمر لواليه عمرو بن العاص يطلب منه الحضور إلى المدينة مصطحبًا معه ابنه، وحين حضر مع ولده، قال له عمر ﷺ عبارته المشهورة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"، ثم ناول القبطي درته وقال له: "اضرب ابن الأكرمين".

هكذا تعامل مجتمع عباد الرحمن مع أهل الكتاب منذ نشأته الأولى، واستمرت هذه الصورة المضيئة في كل عصر يكون فيه الإسلام هو الحاكم الأقوى على شعور المسلمين وسلوكهم. وحين يبتعد عن الحياة أو يبعد عنها ليفسح المجال للأهواء والعصبيات تحكم حياة الناس وتوجه سلوكهم، فإن هذه الصورة الوضيئة تتكدر وتنطمس وتزول، لتحل محلها صورة مغايرة من العلاقات القائمة على الريبة والتعصب والاقتتال. ■

(*) جامعة حلب، كلية الآداب والشريعة / سوريا.

أ.د. عبد الرزاق قسوم*

الشيخ العلاّمة أحمد سحنون

في يوم شتوي ممطر هو يوم التاسع من ديسمبر ٢٠٠٣، تحالفت فيه السماء مع الأرض، فكانت السماء ترسل مطرًا غزيرًا، وكانت الأرض تحمل جهودًا باكيًا غزيرًا. كان ذلك بمناسبة وفاة أحد علماء الجزائر وبناة نهضتها هو العالم العامل بعلمه، العابد المجاهد بلسانه وقلمه، الزاهد الذائد بمهجته وروحه في سبيل الإسلام والجزائر.

الطالب اليتيم

ولد العالم العلاّمة أحمد سحنون ببلدة "ليشانة" بالقرب من مدينة بسكرة عاصمة "الزيبان" بالجنوب الشرقي الجزائري، وذلك عام ١٩٠٧ ميلادي.

نشأ في بيت علم وتقى يتيمًا كنبي الإسلام محمد ﷺ؛ إذ فقد أمه صغيرًا، فرباه والده الذي لم يتزوج بعد فقد زوجته. فوجد أحمد سحنون في والده حنان الأم المفقود وطيبة الأب المحمود، وهكذا مثّل الأب بالنسبة لابنه الأم والأب، فكان ذلك مبعث فخر واعتزاز للابن الذي كان يقول باعتزاز وفخر "أنا رباني رجل" وأي رجل.

كان والد أحمد سحنون رجلاً صالحًا مصلحًا، قانتًا عابدًا، أكسبه القرآن الذي تخصص في تعليمه للناشئة كل التقى والورع والخشوع والتهجد، يبكي في سبيل الله كلما فاض قلبه بالورع والتقى، بكّاء كالمفكر التركي "محمد فتح الله كولن" كلما تعلّق الأمر بالتفاعل مع القرآن تلاوةً وتدبّرًا، أو فاتته فضيلة من فضائل العبادة.

ويَذكر أحمد سحنون عن والده، أنه استيقظ ذات يوم عند الفجر فوجد أباه يبكي بحرقة، فلما سأله وألح في السؤال عن سبب بكائه، أجابه والده بأنه "نام حتى أدركه الفجر ولم يؤد ركعات للقيام".

وقد تأثر الولد لهذا المشهد، فصوره ببيت شعري قال فيه:

أنا ابن الذي يبكي إذا طلع الفجر
ولم يك أدّى ما به يعظم الأجر

إن هذا المشهد قد انعكس فيما بعد على حياة شيخنا أحمد سحنون، فكان صوامًا، يتميز بقيام الليل حتى آخر أيام حياته، كما ساعده على ذلك حفظه للقرآن في سن مبكرة وهو ابن الثاني عشرة سنة.

تميز تكوين أحمد سحنون بالعصامية، فكوّن نفسه بنفسه مستعينًا في ذلك بعلماء عباقرة من أمثال العالم المجاهد الشيخ محمد خير الدين نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وسفير الثورة الجزائرية بالمغرب الشقيق، والشيخ العالم محمد الدراجي، والشيخ العالم عبد الله بن المبروك، وغيرهم.

كما ساعد على تكوينه العلمي والجهادي اتصاله

بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقائدها الإمام عبد الحميد بن باديس الذي كان للقائه به أبعد الأثر في نفسه، فهو يقول: عندما التقيت بالشيخ عبد الحميد بن باديس، سألني عن الكتب التي قرأتها، فذكرت له بعض الكتب المعاصرة، ككتب المنفلوطي وأمثاله من المعاصرين، فنصحني الشيخ عبد الحميد إلى أن أعود إلى أمهات العربية الإسلامية، كالعقد الفريد، وأدب الكاتب، وعيون الأخبار، وغيرها. ومنذ ذلك اليوم عكف الشيخ أحمد سحنون على هذه الكتب القيمة.

إن هذه العوامل الأسرية والعلمية قد صقلت شخصية أحمد سحنون فطبعتها بالسر المكنون فيها، فكان صاحبها أديبًا وشاعرًا ومربيًا وداعية، يتميز في كل صفة بقوة الشخصية والصدق في أداء المهمة، والشجاعة في مقاومة العدو المستعمر الدخيل، والجهر بكلمة الحق أمام أي ظالم أو مستبد.

لقد تجلت كل هذه الخصال فيما كان يكتبه بجريدة البصائر تحت عنوانه القار "على مائدة القرآن"، أو في خطبه المنبرية التي كان يبثها من مسجد بولوغين بالجزائر العاصمة، حيث كانت الجموع الغفيرة تؤمّها لما تجده فيها من متنفس عما تعانيه من الظلم الاستعماري، فيوقظ فيها الوعي بالوطنية. وكان -مما أذكره عن تلك الخطب- أن قيّم المسجد المتطوع آنذاك السيد المكي بوقطاية رحمه الله، يقول بعد أداء إقامة صلاة الجمعة مخاطبًا الجماهير: "لا تنسوا الدعاء لإخوانكم" يقصد المجاهدين، وهو ما كان يعتبر بحق تحديًا للقوى الاستعمارية.

وفاؤه لمنهجية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

اكتسب الانتماء إلى جمعية العلماء، الشيخ أحمد سحنون، الوعي بضرورة محاربة العدو الفرنسي المحتل، مما يعكس صلابة على مواجهة التحدي وشجاعة في مقاومة الاحتلال، وعزمًا على تعبئة الشعب لثورة التحرير الفاصلة.

يقول الشيخ أحمد سحنون بهذا الصدد: "إن كل شيء كنا نعمله لهذا الشعب وكل ما نبذله لهذا الوطن، إنما كان بوحي من روح هذه الجمعية، ووفق الخطة التي رسمتها لتطهير هذه الأرض العربية المسلمة من وجود الاستعمار، ومن سيطرة الأجنبي، ومن عار الحكم بغير ما أنزل الله".

ويضيف في نفس السياق: "لقد كانت حركة، وكان جنود، وكانت أسلحة. كان جنود هذه المعركة، العلماء والمعلمون والطلاب، وكانت الأسلحة هي المقالة والقصيدة والنشيد والخطبة والدرس. كما كان من الأسلحة، الإيمان بالله، وبحق الشعب، والحماس لهذا الحق، والغيرة عليه، والحقد المتأجج في صدر كل مسلم عن كل ما هو أجنبي ودخيل من الأشخاص، والمبادئ، والعادات، والمذاهب".

إن هذه الأفكار كلها يمكن تلمسها في شعر الأديب أحمد سحنون؛ ففي بداية الخمسينيات عندما أطلق الشيخ عبد الوهاب بن منصور -الذي كان أحد معلمي دار الحديث التابعة لجمعية العلماء بتلمسان وصار فيما بعد مؤرخ المملكة المغربية إلى أن توفاه الله- أطلق نداء ملحًّا إلى علماء الجزائر، وخاصة الأدباء منهم، في مقالة نشرها بجريدة البصائر بعنوان "ما لهم لا ينطقون؟"، أي ما لأدباء الجزائر لا ينطقون، رد عليه الشيخ أحمد سحنون بقصيدة معبّرة جدًّا بعنوان: "لا تطل لومي!"، يقول فيها من بعض أبياته:

لا تطل لومي ولا تطلب نشيدي
أنا في شغل بتحطيم قيودي؟
أأغني ويدي مغلولة
وبرجلي قيود من حديد؟
أيغني من غدا موطنه
بين أنياب ذئاب وأسود؟
أيغني من غدت أمته
بعد غر الملك في ذيل العبيد؟
أأغني وأنا في مأتم
بعد دهر كله أيام عيد؟

إلى أن يقول في ختام قصيدته:

لا أغني قبل تحرير الحمى
فإذا حُرّر، غنيت نشيدي
لا أغني قبل أن أجني المنى
وأرى الإسلام خفاف البنود

hiramagazine.com

فاعترافًا من الشيخ بفضل منهج جمعية العلماء التغييري، يقول: "إن هذا الجهد المتواضع هو من أعمال جمعية العلماء، ومن كفاحها، ومن خطواتها المباركة التي مهدت لانفجار البركان وإشعال الثورة".

جهاد الشيخ سحنون في الثورة الجزائرية

لم يقتصر جهاد الشيخ أحمد سحنون في الإعداد للثورة التحريرية والمشاركة فيها على القلم واللسان، بل تعداهما إلى الميدان العملي.

فقد أكدت الشهادات التي أدلى بها المجاهدون الجزائريون، أن الشيخ أحمد سحنون أسس تنظيمًا فدائيًا سريًا، وخلية فدائية سنة ١٩٥٣، أي قبل اندلاع الثورة في عام ١٩٥٤، هذا التنظيم الذي ذاب في الثورة بعد اندلاعها، وكان له فضل المشاركة في الأعمال الفدائية بالجزائر العاصمة.

جاء في شهادة المجاهد حمود شايد في مذكراته: "ولما قامت الثورة ذابت تلك الجهود في ثورة التحرير، وكانت الاجتماعات تعقد في مكتب الشيخ أحمد سحنون المجاور للمسجد، أو في قاعة المدرسة التابعة للمسجد، وهذا التنظيم كان في أعضائه الشيخ أحمد العرباوي، والشيخ خالد بن يطو، وثلة من الشباب منهم مصطفى فتال، ومحمد غيبة، ومحمد طوبلت، وهؤلاء الشباب قاموا بعمليات ضد المستعمر في العاصمة، وكانوا من الرعيل الأول الذين التحقوا بالثورة الجزائرية".

وخير ما يجسد روح الثورة التي ذكرناها، ما كتبه الشيخ أحمد سحنون رحمه الله حين قال: "وطني، إن عملي لك، ودفاعي عنك، وتحرير كل شبر من أرضك، وموتي من أجلك، ونومي في ثراك، هي كل ما يجول في رأسي من أفكار، ويختلج في قلبي من آمال، ويتردد على لساني من نجوى يتمثل في حركاتي من أعمال".

ويضيف الشيخ أحمد سحنون في حبه المقدس للوطن: "لقد زاحمني فيك يا وطني حليف جشع، وأسير طمع، لم ينبت في أرضك، ولم ينحدر من صلبك، ولم يجر في عروقه دم أبطالك، إنما رمى به حب الاستعمار من وراء البحر، ليصبح شجى في الحلق، وقذى في العين، وكابوسًا على الصدر، فدافعته بالحسنى فلم ينفع، وقاومته بالمنطق فلم ينجح، فامتشقت السلاح، وصممت على الكفاح، وأعلنت الثورة.

ولكن كن واثقًا يا وطني، فإنني سأطهر أرضك من أقدام هذا الصقيلي الوقح، وسأعود إليك، وفي يدي نسيج رايتك، وعلى لساني نشيد حريتك، فأنعم بالاً وقرّ عينًا، ولا تكترث بأعدائك، فأنا جنديُك الباسل، وابنك البار، وخادمك الأمين".

وخرج العدو من أرضنا، ورفرفت راية الاستقلال فوق ربوعنا، ولكن معركة الشيخ لم تتوقف، فقد تصدى للأفكار الدخيلة، ولبوادر الاستبداد، وإدخال الأفكار الدخيلة فتصدى لذلك بنفس الحزم والعزم، وقال معربًا عن إرادته الفولاذية مخاطبًا الحكام؛ بعد ما ناله منهم ما ناله من تهميش وإقصاء".

لم يكن ذنبنا سوى أننا ندعو لبعث الأمة الجزائرية، وننادي كل الشعوب بإخلاص لإيجاد:

ثورة خلقية، فانعمي أيتها الحكومات

بالاً ليس فيما ندعو إليه أذية

ليس من همنا انقاب

ولا حكم فإنا ذوو نفوس أبية

وعندما هجمت على الجزائر العشرية السوداء، التي اختلط فيها الحابل بالنابل، ووقعت محاولة اغتيال الشيخ أحمد سحنون في مسجده قبل أداء صلاة الفجر، بعدها زرته في بيته وسألته، هل ما زلت تعرض الشعر؟ فأجاب مبتسمًا، بوجهه الطلق المحيى المعهود قائلاً؛ "قلت بيتين يتيمتين في وصف المحنة التي نعانيها وهما:

سئمت حياتي، فهي سجن مؤبد

وليس بغير، الموت أخلص من سجني

صديق بلا صدق، وعلم بلا تقى

ودرس بلا فهم، وأمن بلا أمن"

رحم الله شيخنا العالم العلامة أحمد سحنون، وأسكنه فراديس جنانه جزاء له على ما قدم. ■

(*) رئيس جمعية العلماء المسلمين / الجزائر.

hiramagazine.com

نور الدين صواش*

القيم الأخلاقية
حرمتها ومكانتها

تحت عنوان "القيم الأخلاقية.. حرمتها ومكانتها" في مركز تباكولا للمؤتمرات، شهدت مدينة إزمير الشهر الماضي (٢٤ يناير ٢٠١٥) مؤتمرًا دوليًّا عقدته مجلة حراء بالتعاون مع مجلة يني أميت التركية، بمشاركة كوكبة من العلماء والمفكرين والأكاديميين والمثقفين من بلدان مختلفة من العالم العربي والإسلامي؛ مثل المغرب والجزائر والأردن والسودان واليمن وتركيا. وقد تناول المؤتمر في جلساته طيلة يوم كامل موضوع القيم الأخلاقية بأبعادها الاجتماعية والتعليمية والثقافية مع التركيز على واقع العالم الإسلامي الذي يعيش اليوم مجموعة من الحرائق والمآسي.

استهلت فعاليات المؤتمر بتلاوة آيات بينات من الذكر الحكيم تلاها القارئ مصطفى يغيت. افتتح الدكتور أركون جابان رئيس تحرير مجلة يني أميت التركية المؤتمرَ بكلمة ترحيبية بالضيوف الذين جاؤوا من ربوع الأرض إلى

مدينة إزمير الطيبة. وقد أكد في كلمته الموجزة أن القيم الأخلاقية هي التي تُكسب المجتمع هويته وتجعل من أفراده نماذج مثاليين تقتدي بهم كل الأمم.

إثرها صعد المنصة الأستاذ نوزاد صواش المشرف العام على مجلة حراء ليرحب هو الآخر بالضيوف ويثني عليهم بالشكر، وبالتالي ليتطرق إلى القيم الأخلاقية الإسلامية، معتبرًا هذه القيم لبنة أساسية في فهم الإسلام وأسسه، إذا حلت في قلب الإنسان صلح ذلك القلب، وإذا صلح ذلك القلب صلح الإنسان. كما لفت إلى أن مشكلة العالم الإسلامي اليوم هي مشكلة أخلاقية بامتياز، لأن المسلمين لم يتطبّعوا بأخلاقيات الإسلام، ولم يتشربوا قيمه حق التشرب، الأمر الذي جعلهم يخسرون أخلاقيًّا كل الامتحانات التي خاضوها، حيث قال: "المسلم يمتحن اليوم، وامتحانه كله أخلاقي بامتياز؛ المسلم يمتحن بالسلطة فيخسر، يمتحن بالثروة والمال فيخسر، يمتحن بالشهرة فيخسر، يمتحن بالشهوة فيخسر، يمتحن بالانتماء والعائدية إلى الجماعة الفلانية أو الحزب الفلاني أو الطائفة الفلانية فيخسر.. لماذا؟". وأشار "صواش" إلى أن المسؤولية الأخلاقية هي مسؤولية هذا الزمان وهي واجب الوقت مؤكدًا أن: "العالم في أمس الحاجة إلى الإسلام، لكن الإسلام في أمس الحاجة إلى من يمثله خُلقًا وقيمًا".

وتوالت الكلمات الافتتاحية حول القيم الأخلاقية والحاجة الماسة إليها في عالمنا الإسلامي. كما أعرب فضيلة الدكتور "عبد الرزاق قسوم" رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر عن شكره وتقديره لانعقاد هذا المؤتمر ولانتقاء موضوع القيم الأخلاقية عنوانًا له، التي بدونها لن تقوم للإنسانية قائمة، وفي ثنايا كلمته بيّن أن: "فلسفة القيم تلتقي حولها كل العقائد وكل الأيدلوجيات، ولكن عندما تتصل بالإسلام تأخذ أبعادًا مختلفة، فتصبح القيم الأخلاقية في الإسلام سموًّا وعمقًا وامتدادًا؛ سموًّا بالإنسان إلى أعلى القيم النبيلة، وتعمقًا في الإنسان بمعانيه ونواياه ومقاصده، وامتدادًا في معاني الإنسانية والمجتمعية بصفة عامة.. وبهذا المفهوم تتسم القيم الأخلاقية في الإسلام بالنموذجية

د. أركون جابان / تركيا.

نوزاد صواش / تركيا.

د. جمال السفرتي / الأردن.

أ.د. عبد الرزاق قسوم / الجزائر.

التي يجسدها الأب والأم في البيت للأولاد والبنات، والتي يجسدها الأستاذ في المدرسة للطلبة والطالبات، وكذلك يجسدها الحاكم في ديوانه بأن يقدم القدوة للشعب والمجتمع.. وهذا ما قدمه الإسلام من نماذج مختلفة حول القيم الأخلاقية. لأن القيم الأخلاقية هي التي تبني الأسس التي تقوم عليها الحياة الإنسانية، ولكن بدون هذه القيم لن تقوم للإنسانية قائمة".

وأشاد الأستاذ الدكتور محيط مرت عميد كلية الإلهيات بجامعة الفاتح بتركيز المؤتمر على الجانب الأخلاقي في الأمة الإسلامية، لأنه الجانب الأساس الذي ركز عليه الإسلام في تنشئة الأجيال التي ستبني مستقبل الأمة. ثم أحيلت الكلمة إلى الأستاذ الطاهر حسن أحمد التوم المدير العام السابق لهيئة الخرطوم للصحافة والنشر بالسودان، الذي عبّر فيها أن: "القيم الأخلاقية في الإسلام هي قيم إنسانية بالضرورة، وأن الخطاب الإسلامي هو خطاب عالمي، وشرعته شرعة للتخفيف والرحمة، ولذلك ينبغي على الذين يحملون هذا الخطاب أن يكونوا بمستواه". ثم جاءت الكلمة الختامية لجلسة الافتتاح من الأستاذ الدكتور عدنان أرسلان عميد كلية الاجتماع بجامعة سليمان شاه بإسطنبول، التي أكد فيها أنه لا يمكن أن نسمو ونرتقي بأمتنا إلا إذا عضضنا على قيمنا الأخلاقية بالنواجذ.

المحاضرة الافتتاحية

وفي المحاضرة الافتتاحية المعنونة بـ"مكانة القيم الأخلاقية في الإسلام" للأستاذ الدكتور "سمير بودينار" رئيس مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة في المغرب، أوضح أن آيات القرآن الكريم قد اشتملت على ٩٥٪ في القيم وأصولها، وأن النسبة الضئيلة الباقية (٥٪) اشتملت على الأحكام الشرعية مع أهمية الشريعة، وأنْ لا حياة بدون القيم الأخلاقية، حيث عدّ الأخلاق هي المعيار الذي نحكم من خلاله على كل عناصر التدين عند الإنسان المسلم، واعتبر موقعها من الدين هو بمثابة موقع الروح للجسد. كما أشار إلى أن "صدق التوحيد، يتجلى خُلقًا وسلوكًا في حياة الإنسان المسلم، والتواصي بموضوع الأخلاق في كل

أ.د. محيط مرت / تركيا.

الطاهر حسن أحمد التوم / السودان.

أ.د. عدنان أرسلان / تركيا.

د. سمير بودينار / المغرب.

حال، وتجدد الحديث عنه باستمرار، هو الذي سيعطي للأجيال الجديدة معالم الهداية ويكون لها نبراسًا في حياتها". ثم ختم كلمته بالتنويه إلى المشاكل التي تمزق عالمنا اليوم وهو افتقادنا لهذه القيم الأخلاقية، مضيفًا أن الأمانة هي أساس أخلاق الشأن العام، واستشهد على ذلك بقول النبي ﷺ: "لا إيمان لمن لا أمانة له".

الجلسة الأولى

"في المدينة المباركة التي حظيت بشرف بداية مدرسة المحبة، وتأصيل وتقعيد بداية مدرسة بناء الأخلاق، وتربية الأمة على المحبة من خلال الأستاذ فتح الله كولن حفظه الله، أرحب بالضيوف، وأهنئ مجلتي حراء ويني أميت على عقدهما هذا المؤتمر الكريم واختيارهما موضوع الأخلاق عنوانًا له".. بهذه المشاعر في مدينة إزمير رحب الأستاذ الدكتور "أحمد البوكيلي" من جامعة ابن طفيل بالمغرب الضيوف، ثم عرّج في ورقته التي عنونها بـ"العفة كقيمة أخلاقية" إلى أن الأصل في الأخلاق هو نور من أنوار الله ﷻ أعطيت للإنسان من أجل التخلق والعروج بها إلى ربه. وصفة الرحمة لا تبقى مرتبطة بالله ﷻ وبالرسول ﷺ، بل ستبقى حاضرة بين البشر أيضًا، وإن مقام التخلق العقدي من أسمى المقامات في الدين، والأصل في الأخلاق أنها ثمرة إنتاج منظومة القيم". كما جاء في ورقته بشرح المنهج التربوي للعفة من خلال وجهة الأستاذ فتح الله كولن مبيّنًا أن هذا المنهج ينطلق من ثلاثة مرتكزات الأول: التربية العقدية، تربية شمولية للإنسان تجمع بين البعد العقدي والبعد التربوي، أما الثاني: التربية الثقافية أو التنشئة الثقافية على قيم العفة حتى تصبح العفة ثقافة في المجتمع، وذلك من خلال الاعتماد على المؤسسات الثقافية والمؤسسات التربوية، لصناعة جيل مشبع بقيم العفة باعتبارها عنوانًا حضاريًّا للأمة الإسلامية، وأما المرتكز الثالث: تأكيد الأستاذ على نقدية العفة، وهي جزء لا يتجزأ من بناء الأمة الإسلامية باعتبار هذه الأمة هي الأمة الشاهدة على الناس".

وببلاغته المعهودة وبيانه المؤثر، قال الأستاذ الدكتور "فؤاد البنا": "من المعلوم ومن الطبيعي أن تشرق الشمس

د. محمد بابكر العوض / السودان.

أ.د. فؤاد البنا / اليمن.

عبد الحميد بيليجي / تركيا.

د. أحمد البوكيلي / المغرب.

من الشرق، إلا في حالة تركيا المعاصرة أشرقت شمسها من الغرب من هذه المدينة وهي مدينة إزمير". ثم ركز في ورقته التي عنونها "الأمانة الأخلاقية للعلماء تجاه التحديات الراهنة" على ثلاث قضايا أساسية؛ أولها أن العلماء هم مضغة الأمة، إذا صلحت صلحت الأمة، وإذا فسدت فسدت الأمة، مستشهدًا على ذلك بالقول المأثور: "صنفان من الأمة إذا صلحا صلحت الأمة، وإذا فسدا فسدت الأمة، وهما العلماء والأمراء". وثانيها أهمية الأمانة الأخلاقية عند العلماء، لأن الأمانة قرينة العلم الرباني، والحفظ هو الجانب الأخلاقي.. وثالثها خطورة العلم بدون أمانة علمية، لأنه عندما يتعلم الإنسان العلم بدون أخلاق وبدون أمانة، يتعرض إلى انتقام علمي، ومن بين أمثلة الانتقام العلمي ما يحدث اليوم للعلماء من تفرق فيما بينهم.

الجلسة الثانية

في الجلسة الثانية والأخيرة التي ترأسها الأستاذ الدكتور محمد بابكر العوض من السودان؛ حول "المسؤولية الأخلاقية والقدوة" ذكر الأستاذ الدكتور جمال السفرتي من الأردن، أن "المسلمين في كل مكان يحتاجون لأسوة الرسول ﷺ ليقتدوا به في تعليم أبنائهم وتربيتهم تربية صالحة. وجعل سبحانه من حكمته أن البشر بحاجة إلى من يسوسهم ويتولى أمرهم ويتدبر شؤونهم". ثم تطرق إلى مفهوم الراعي والرعية قائلاً: "الراعي والرعية يعملان بشكل متكامل مع بعضهما البعض، وإن أي اختلال في هذه العلاقة ستؤدي إلى عواقب وخيمة". وقد أكد في ختام ورقته أن "الأمة الإسلامية تحتاج إلى العالم القدوة والحاكم القدوة، ومن هؤلاء الأستاذ فتح الله كولن" الذي أعتبره مجدد هذا العصر، ثم قدِّمت بعده ورقتان حول "الأخلاق والتعامل مع المال العام" للأستاذ الدكتور عثمان قاشقجي عميد كلية الحقوق في جامعة الفاتح، و"القيم الأخلاقية والإعلام" للأستاذ عبد الحميد بيليجي المدير العام لوكالة جيهان للأنباء التركية.

البيان الختامي

وبعد كلمة الشكر للدكتور أركون جابان، اختتم المؤتمر فعالياته ببيانه الختامي الذي قرأه على الحضور الدكتور عثمان قاشقجي والذي جاء فيه:

• إن الأخلاق هي جوهر الإسلام، والصدق والعفة ومراعاة الحلال والحرام، من مبادئ الإسلام الأساسية، وهذه القيم الأساسية تشكّل شخصيةَ وهوية الأفراد والمجتمعات المسلمة.

• أثبتت التجارب التاريخية، أن الأفراد والمجتمعات التي تَسكت تجاه تدمير القيم الدينية والأخلاقية والمجتمعية، لا مفرّ من تعرّضها للأزمات السوسيواجتماعية وانهيارها.

• إن الإسلام يعتمد في وليّ الأمر العدالةَ والحقوق وسيادة القانون، والأهلية واللياقة، ويطلب منه أن يكون في تصرفاته ملازمًا للأخلاق الحسنة والرفق واحترام الإنسان.

• إن الإسلام يَعتبر الحقوق العامة من حقوق الله، ولذا فإن التطاول على المال العام وإساءة استخدامه، وكسب المال بطرق غير مشروعة من حيث إنها تتعلق بحقوق الجميع، يُعتبر جريمة كبرى وذنبًا أعظم من السرقات التي تمارس على المستوى الفردي.

• ليس هناك سببًا من الأسباب يبيح للشخص أن يرمي غيره بكلمات غير أخلاقية، من نحو الكذب والافتراء والبهتان، وتشويه السمعة والطعن والذم مهما كانت الأسباب والمبررات.

• إن العلماء بحكم أنهم ورثة الأنبياء، يقع على عاتقهم حماية المجتمع من الناحية الأخلاقية والمعنوية، وعليه فإن صمت العلماء تجاه فساد المجتمع من الناحية الأخلاقية وبالٌ عظيم، كما أن إضفاء لون من الشرعية عليه تعتبر كارثة بكل معنى الكلمة.

• إن لكل الأفكار والقناعات المخالفة، حقَّ الحياة والتعبير عن نفسها، بشرط أن يكون ذلك في الإطار القانوني والحقوقي والأخلاقي والديني، وأن لا يمارس صاحبها القوةَ والقسوة والشدة. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل
شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye
HİRA DERGİSİ
İlim Düşünce ve Kültür Dergisi

صاحب الامتياز
فكرت يشار

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
أجير أشيوك

المخرج الفني
مراد عرباجي

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad.
No:1 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Phone: +902165221144
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
دار النيل للطباعة والنشر
٢٢ ج- جنوب الأكاديمية - التسعين الشمالي - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة
تليفون وفاكس: 5-20226134402+
الهاتف الجوال : 201000780841+
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
2 Aylık-Arapça-Yaygın-Süreli,
İlmi, Kültürel

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir - Türkiye
Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدًا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- للمجلة حق نشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون إذن من كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال على رغبته في النشر في المجلة المطبوعة. علمًا بأن ما ينشر في الموقع إلكترونيًّا لا يترتب عليه مكافأة مالية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء - اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
دار المأمون للنشر والتوزيع، العبدلي، عمارة جوهرة القدس
رقم: 182، مدخل البنك العربي، عمان/الأردن.
Phone: +962 0790316072 / +962 0787581782
hiramagazinejordan@gmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966507570864
hirasaudia@gmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد - الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤-طرابلس-ليبيا.
هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

يحتوي هذا الكتاب على حوارات أجريت من قبل أشهر الصحف المحلية والعالمية مع الأستاذ فتح الله كولن حول الأحداث التي وقعت في تركيا عام ٢٠١٤، والتي يعود بداية ظهورها إلى ١٧ ديسمبر عام ٢٠١٣.

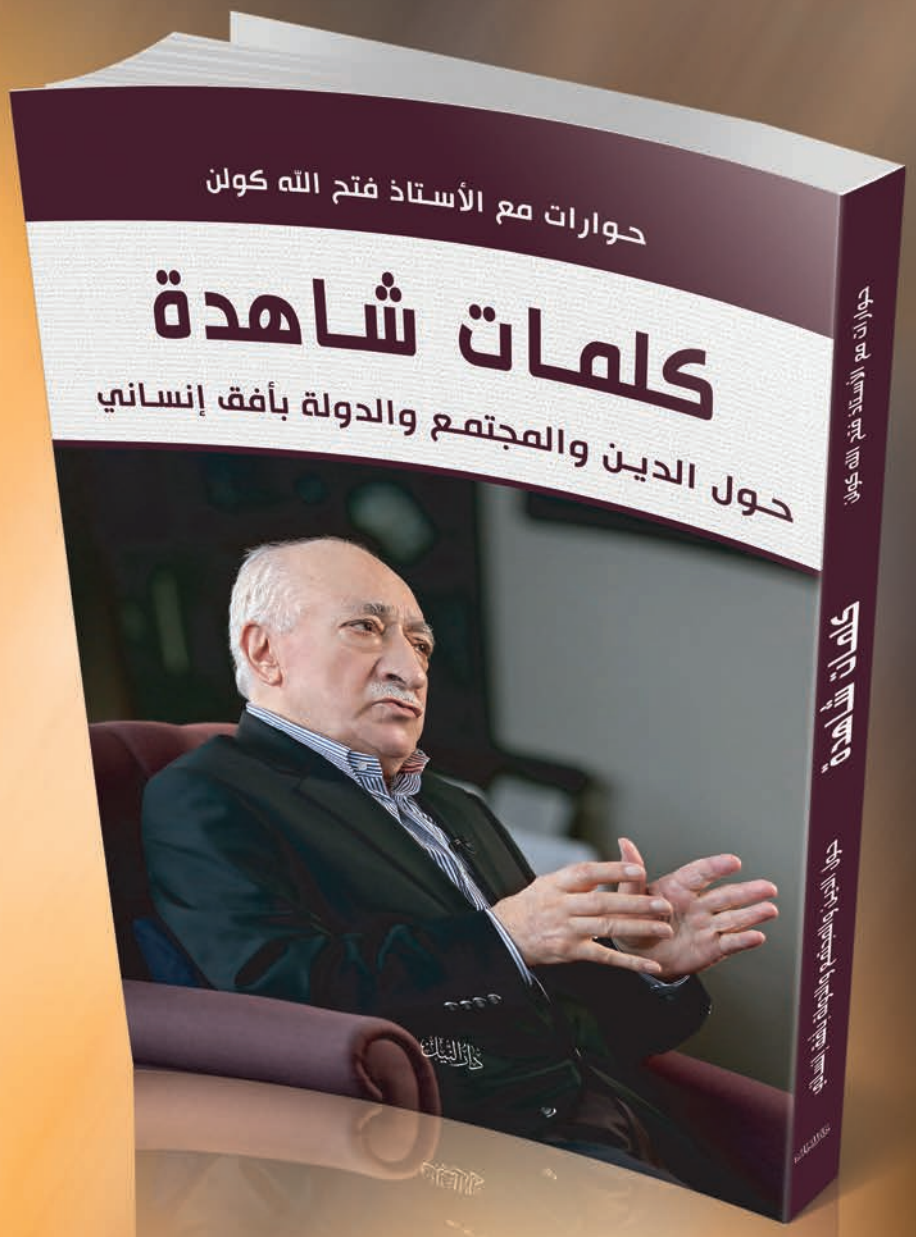

دار النيل : ٢٢ ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر
تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+
daralnile@daralnile.com
www.daralnile.com

أصوات وأصداء

أصداءَ أصواتنا من منافذ روحكم نتسمّع،

وعيشُنا جدب، من غيركم لا ينفع،

لأرواحنا أنتم حياة، ولقلوبنا سُقيا ورُواء،

يا هذه الأصداء القدسية، يا معطرة الأجواء البهية،

بأمداد الله تُحيين، وبألطافه تتنزّلين..

أدامكِ الله، وبركاتِه عليكِ أنزل،

منكِ لا يحرمنا، وعنك لا يقصينا..

* * *

تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 47
www.hiramagazine.com
Mart - Nisan 2015 Sayı: 47 Fiyatı: 7,5 TL.